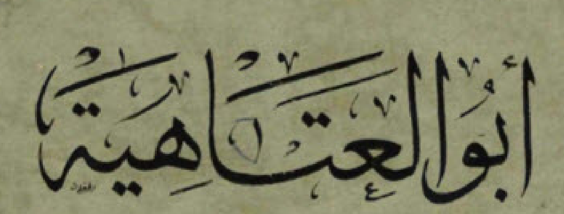




عبد اللطيف شرارة

دار الشرق الجديد - بيروت

أعلام الفكر العربي

٢٠

١٩

أبو العتاهية

الطبعة الأولى

نيسان (ابريل) ١٩٦٢

عبد اللطيف شرارة

أبو العتاهية

شاعر الزهد والحب الخائب



منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

تصدير

كلُّ « هوى » قوي جــامح ، تستعِر به الروح ، ويلتهب الفكر ، ويستقطب جميع طاقات النفس ، ويصرفها نحو الغوص في مشاكل الوجود الكبرى ، وينقل صاحبه الى عالم آخر يختلف عن عالم الناس وهمومهم ومشاغلهم وأفكارهم المعتــادة – كل هوى من هذا النوع ، له هذا الشأن ، انما يكون ، دليل عبقرية أصيلة ، وتفوق ذاتي ، وانفراد بموهبة أصيلة يصعب اكتناهها ، ولا يملك الناس تبيّنَهــا إلا من خلال الآثار الفنية والأدبية والفلسفية التي تنبثق عنها ، ومنهــا تتكون ، واليها تُردّ ، وبها تفسّر .

غير ان ثمة قلوباً تمرُّ بمثل هذه الحالات من الهوى الجـامح ، تلتهب أمــام الوهج الذي يطالعها به وجودها ، ثم تحترق وتتحول الى رماد ، دون ان يشعر بها أحد !

وثمة قلوب يبلغ من قوة تأثرها ، وشدة الفتنة بها، ما يعطّـل الفكر لدى أصحابهــا ولكن على درجات ، فمنهم من يعتريه

الخبال (الهستيريا) ، ومنهم من ينحـــدر الى هاوية البَلَـه ، ومنهم من يتحجّر ويجمد ويضيع أخيراً عن معاني الحيـــاة الصحيحة ، ويغرق في أشياء تتّسم بالتفاهة او القصور، كأن ينصرف الى جمع المال والاستغراق المطلق فيتكديسه، او يعتزل الناس فلا يرى بعدُ فيهم خيراً ، أو يتلهى بالسفاسف والقشور ، أو يزهد ويتنسك ويصطنع لبـاس المسكنة، عن غير وعي ولا تفكير .

وأثر المرأة في جميع هذه الحالات هو الأساس ، وهو المصدر وهو المكمن الذي يمكن ان نكتشف فيـــه أسرار التفوق لدى المتفوقين ، وأسباب الانحراف عند المنحرفين ، وبواعث التحجر والجمود في عقول الجامدين .

على ان للمجتمع أيضاً ، للمناخ الحضـــاري الذي يخضع له النساء والرجـــال على السواء ، يداً طولى في توجيه القلوب ، وتشكيل الأهواء ، و « قولبة » العقول والنفوس البشريـــة ، فالعباقرة الذين تفرّدوا بمـا أعطوا في حقول الفكر ، والفن ، والعلم ، والأدب ، كانوا ، في الأعمّ الأغلب ، من الرجـــال ، والقلوب التي احترقت على وهج حياتها وما اعتمل فيها ، كانت في معظمها ، نسائية،والنفوس التي تعطّلت ومُنِيَت بالانحراف أو الجمود ، كانت ولا تزال ، من الجنسين .

واذا أنتَ رجعت الى التـاريخ ، تاريخ أي مجتمعٍ متحضّر – والأهواء القوية لا تنشأ ولا تعيش إلا وسطٍ حضـــاريّ –

وقعتَ على أمثلةٍ لا حصر لها، تضع اثر المرأة في بناء الشخصية وتهديمهـــا ، موضع اليقين ، إن في حَيَوات الشعراء والفنانين والمفكرين والأدباء وحتى العلمـــاء ، وإن في حيوات الملوك والساسة والقادة والزعماء ، ثم رأيت رأي العين ما كان للجو الاجتماعي السائد من تأثير في تكوين المرأة عامة من الوجهات الثلاث : العقلية والروحية والنفسية ، وما تتجه نحوه من آفاق وتطلعات في الحياة ، بحيث تلمس هذه الحقيقة ، وهي ان اتجاه المرأة في كل حضـــارة يشكل على التحقيق ، « لبّ » هاتيك الحضارة ، ومنه يتألف جوهرها الصحيح ، وانه هو الذي يرسم لها مصيرها، ويدل على مواطن القوة فيها ، بنسبة ما يبيّن مدى ضعفها الدفين ، رغم المظاهر والزخارف التي تبهر العيون ، وتأخذ بمجامع الحواس .

ولقد كانت حضارة بغداد ، عهدَ العباسيين الاولين ، تعج بالأهواء القوية الجامحة عجيجـــاً يندر أن نقع على مثله إلا في روما ، عهدَ القياصرة الأوَل ، وتظل بغداد ذلك العصر، أوفر حيوية من رومـا القياصرة ، وأغنى شاعرية ، وأشد عنفـاً وجموحاً في العواطف والأفكار والاخلاق .

ذلك عصرٌ شهِد مسلم بن الوليد الذي أطلق عليـه لقب « صريع الغواني » ، والعبـاس بن الأحنف الذي عـاش دهره ينشد العفة في الحب ، وأبا نواس الذي ضرب الرقم القياسي في الخلاعة والتهتك والتهالك على المتع واللذائذ الدنيوية ، وبشار بن

برد الذي فاق كل ذي لسان بهجائه المقذع وتحديه المواضعات الاجتماعية ، وصالح بن عبد القدوس الذي طمن في السن وأقام على زندقته حتى قتل وصلب على جسر بغداد ، وسعيد بن وهب الذي لم يبق متعة من متع الارض إلا وغاص فيها الى اذنيه ، ثم أصبح من بعد مثالاً يحتذى في التوبة والتقوى والورع ... وماذا أعدُّ بعد من شعراء ، وأنت لا تكاد تسمع عن رجل اشتهر أو امرأة ذاع صيتها من أهل تلك الحقبة لم يكن شاعراً أو شاعرة حتى من الخلفاء والوزراء والأميرات والأمراء ؟!

أما المفكرون الذين اتهموا بالزندقة ، والفقهاء الذين صارعوا دون افكارهم ، واضطهدوا بسببها ، والعلماء والباحثون والمترجمون واللغويون الذين كانت تعصف بهم شتى الاهواء ، وتجعل حياتهم إعصاراً من الجهد والنشاط ، فهؤلاء لا يقلون عدداً عن الشعراء في كل مدينة وقرية ، وإن جمعتهم بغداد ، وأقبلوا عليها من كل فجٍّ وواد .

بيد ان هنالك رجلاً ساقته المقادير الى وضع عجيب في تناقضه ، وتعدد جهاته ، ووفرة تعبيراته ، فجاء مثال عصره كلّه ، وعبارة الحضارة التي كوّنته ، إن في عنف أهوائه ، وحرارة عواطفه ، وإن في تقلباته العقلية والنفسية ، وإن في تشعّب مواهبه ، وتضارب مسالكه بين فترة وفترة من عمره .

ذلك الرجل كان عبقريّاً ، ومخبولاً ، وجامداً متحجراً ، وزنديقاً ، وتقيّاً ، وزاهداً ، وخليعاً ، ومتصوفاً ، وفناناً حاذقاً في آنٍ واحد . وكان الى ذلك كلّه « عاشقاً » من الطراز الأول ،

نزلت « إحداهن » من قلبه منزلةً ليس لها ما يدانيها غير منزلة ليلى من قلب قيس ، أو بثينة من جميل . وهـــذا هو موضع التعجب من سيرته كلها ، كما هو المصباح الذي يلقي عليها النور ، ويفسر الى حد بعيـد ، جميع مـا حفلت به من غرابات ونقائض .

ثم كان من أمره ان عمّر طويلاً ، ونظم كثيراً ، ولم يترك زاوية من زوايا الوجود البشري إلا وأطل منهـا على النــاس بتجربة حية ، صحيحة ، وعبّر عنها بصدق وبساطة وبلاغة ، اذ افتقر أو نشأ فقيراً على الأصح ، واغتنى ، وعاشر الصعاليك ، ونادم الملوك والامراء ، وأحب ، وعذّب ، وتزوج ، ورزق اولاداً ، وحُبس ، وأُهين ، وأُكرم ، ونال الجوائز ، وتزندق ، وتنسك ، ثم ذاع في آفـاق هذاك العالم صيته ، على انه شاعر الزهد ، ورسول النسك !

ولكن « حقيقة » امره كشاعر لا تزال الى يومنـا هذا ، مجهولة ، مطموسة ، إذ لم يوله النقاد العناية التي حظي بها رفاقه ومعاصروه من امثال ابي نواس وبشار والعبـاس بن الأحنف ، ولا نال من الباحثين المحدثين شيئاً من الرعاية التي نالها هؤلاء ...

أما سر هذا الموقف منه ، فانه يكمن في ناحيتين : الأولى ان شعره بلغ من الكثرة درجة أعيا معهـا على النــاس جمعه ، فضاع معظمه ، والثانية أن اكثر مـا بقي من اشعاره يكاد يقتصر على لون واحد ، وموضوع واحد هو « الزهد » والتذمر من الدنيـا وأحوالها والتبرم بالنــاس وأخلاقهم ، والتشنيع

عليهم ، والتحدث عن « الموت » ...

هذه الموضوعات - وكلها كئيب ، حزين ، منفّر ، بغيض - إنما حفظت ، واتيح لهـا ان تغمر سائر ما قال ونظم ، بسبب ما اولاها المتصوفون والمتنسكون والدراويش من عنـاية في عصور الانحطاط ، وفي هؤلاء من كان ينظم وينسب ما ينظمه الى ذلك الرجل ، بعد ان عرف واشتهر بهذا الجانب من الحياة الشعرية ، وكان أول ما يخطر على بال الواعظين ورجال التقوى حين يقعون على ابيات في الزهد لا يعرفون قائلهـا ، ان ينسبوها اليه !

والواقع الذى لا يرقى اليه شك ، هو ان ابا العتاهية نظم في كل موضوع ، ونظم كثيراً ، ولم يكن « زاهداً » بالمعنى الديني المتعارف عليه ، وانما هي التجارب المريرة القاسية التي عاناها وعبّر عنها ، صبغت شاعريته بتلك الصبغة المنفّرة من الحياة ، بل كان حب الحياة يجري في دمه زاخراً هداراً ، ولما لم يلق من الحياة إقبالا ، انصرف الى التفكير في « الموت » وراح يتحدى به عصره وناس عصره ، كأنمـا هو الذي اكتشفه ، وهو الذي اختص به من دون النـاس ، لشدة ما سلّط عليه من أضواء ، وقوة ما أعمل فيه فكره ، ودرس آثاره في الوجود من حوله .

وعلى هذا النحو ارتفع صوته في فضـاء ذلك الزمن ، وسط هاتيك الضوضـاء التي تصمّ الآذان بالخلاعة والفسق والتهتك والجواري والغلمان والقيان والزندقة والفلسفة والرد على الفلاسفة وتعقب الزنادقة - ارتفع صوته بحديث الموت ، وبطلان اللذائذ

الدنيوية ، والإزراء بالأمجاد الجوفاء ، والبهارج الزائفة ، فكان صوتاً جديداً ، يكاد يكون مبتكراً بالنسبة لما يحيط به من لغط وتهالك على المتع .

ذلك في جانب ، والجانب الآخر ان الموت لم يكن يوماً من الأيام أحد الاغراض الشعرية الذي انصبّ عليه الشعراء واهتموا به ، فكان أحدهم لا يفكر فيه إلا عند وفاة عزيز ، أو رثاء صديق ، أو تأبين عظيم ، فاذا فرغ من اللحظة أو الساعة أو اليوم ، عاد الى شؤون الحياة ومشاغلها ، ونسي كل شيء .

ولكن أبا العتاهية خالف الشعراء ، أو هو تميز عنهم بالحاحه في تذكر الموت ، ومواجهته لدى كل حادث ومناسبة ، وجرّ الناس الى عدم نسيانه حتى في ساعات ابتهاجهم ، وأوقات فرحهم ، ولحظات انشراحهم وسرورهم . وكان في موقفه هذا يصدر عن مزاج خاص ، تكوّن مع الايام ، على يد تجارب خاصّة، في إطار حضارة خاصة . وسيرته في الحقيقة ، إنما هي قصة تلك الحضارة ، ومجموعة هاتيك التجارب ، وعرضٌ لذلك المزاج ...

وهذا ما نحاول بيانه في هذا الكتاب .

بيروت كانون الثاني ١٩٦٢

عبد اللطيف شراره

عَصْرُهُ وَبيئتُه

عندما يحتدم الصراع بين فئات مختلفة ، متنابذة ، تعيش رغم اختلافها وتنابذها ، في مجتمع واحد ، وتخضع لسلطة واحدة ، تصبح الغلبة لأية من الفئات المتصارعة قضية زمن لا أكثر ، بمعنى ان كل فئة تترسّخ ، بعد ان يصبح لها تاريخ وضحايا وثارات وأحقاد ، في مبادئها ، وتلتزم التزام الموتور – لا المقتنع – بالموقف الذي يفرضه عليها ماضيها كمجموعة متميزة ، لها ماض خاص بها . وبهذا ... يفضي الصراع المرير الطويل ، كل صراع مرير طويل ، الى التنكر للحقائق ، ويفقد المجتمع الذي يعانيه ، حماسته الأصيلة الدافعة ، ويضل جملة ، لا أفراداً ، عن كل فهم موضوعي لواقعه ، وتضطرب فيه القيم ، وتختلّ الموازين ، وتختلط المقاييس ، وتتحول الرموز والشعارات والمبادىء التي تصطنعها الفئات المختلفة ، الى كلمات جوفاء ، ويغدو المضمون الحقيقي لكل نشاط فكري او ديني أو فني ، نشدان السلطة ، او التمتع باللذائذ ، او الحصول على وسائل هذا التمتع ، او

الإبقاء على سلطة قائمة . وكل مجتمع يصل الى هذا الطور ، يعني بمجرد وصوله إليه ، أنه آخذ في الانحلال ، وان حضارته تسير في منحدر لا يمكنه معه ان يتفادى سقوطها وانهيارها ..

ولقد نشأت الدولة العباسية نتيجة صراع دامٍ طويل ، بين العرب والموالي ، وكانت الغلبة فيه للموالي ، ولكن السلطة ظلت بيد العرب ، وظل الصراع حولها قائماً لا يفتر ، ولا يكل ، ولا يهدأ ، الى ان بلغ مداه في انحلال الامبراطورية ، وتشتت أقطارها ، وتفرق ولاتها ، واستقلال كل والٍ بالبلاد التي يحكمها ، وافتقاد رأس الدولة - الخليفة - كل سلطة فعلية وسقوط بغداد أخيراً في أيدي المغول .

وأبو العتاهية نشأ في الدور الأول من الدولة العباسية ، وشهد البلاء الذي كان يعانيه المجتمع العراقي في تنازع الأهواء ، وتفرق الآراء ، واحتدام الخلافات الكثيرة بين الطامحين الى الحكم ، والساعين وراء الثروة ، والعاملين على حيازة الجاه ، وعانى بنفسه مرارة الحياة في مجتمع تخاذل أبناؤه ، وعنفت أهواؤه ، وتعددت فئاته ، وكثرت اتجاهاته ، فلم يبق فيه من يأمن على حياته ، او يطمئن الى غده ...

أزمة عنصرية

كان تغلب العنصر العربي على سائر العناصر البشرية المحيطة به - لا سيما على الفرس - في أعقاب الحركة الإسلامية ، سبباً في

صرف الاذهان الى تاريخ العرب ، وحياتهم الاجتماعية ، وأوضاعهم العامة ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وبجمل ما يتصل بهم من شؤون . ولما ولي الامويون السلطة بعد الخلفاء الراشدين اعتمدوا على العصبية العربية في ترسيخ سلطانهم ، وحوّلوا المجتمع الى فئتين : العرب ، والموالي . الاولى هي الارستقراطية التي تتمتع بالسيادة ، وتتولى الاحكام ، وتقود الجيوش ، وتنال المغانم والمكافآت ، وتحظى باسباب الرخاء ، والثانية هي التي تقوم بالاعمال الزراعية ، والصناعية ، والتجارية ، ولا تشارك في قضايا السياسة ، ولا تتدخل في الإدارة ، ولا تملك ان تترقى في المناصب العسكرية ، أو تتولى القضاء ، او تؤثر في الحياة العامة . وكان أبناؤها ، في معظمهم ، من الشعوب اللاعربية التي دخلت الاسلام . وبلغ من حرص العرب على ارستقراطيتهم ، وسيادتهم ، ألاّ يكنوا الموالي - أي الذين انتسبوا اليهم بالولاء - بالكنى ، فاذا نادوهم أو خاطبوهم ، استعملوا في مخاطبتهم الاسماء العادية ، بينما الاحترام يفرض في عرفهم ، ان يخاطبوا الانسان بكنيته : « يا أبا فلان ! » او : « يا أم فلان » ، « واذا أقيمت مائدة عربية وحضرها عدد من العرب ، قام الموالي في خدمتهم ، وإن أطعموا أحداً من الموالي معهم لفضله وعلمه مثلاً ، أجلسوه في طريق الخباز ، لكي يعلم من يراه انه ليس من العرب في الصميم . ولا يجوز لاحد من الموالي ان يصلي إماماً على جنازة أحد من العرب ، اذا كان هناك بين

المصلين عربي واحد ، ولو كان غريراً .. واذا أراد رجل من الناس الزواج ببنت أحد من الموالي ، وجب عليه ان يخطبها قبل كل أحد ، من ذلك العربي الذي ينتمي أبو البنت اليه بالولاء ، فان وافق كان للخاطب بعد ذلك ان يخطبها من أبيها ، وإلا فلا يجوز له ذلك .. وغـلا بعض هؤلاء العرب في أرستقراطيتهم هذه ، فصاروا يطلقون على أبنائهم المولودين من أمهاتٍ غير عربيات اسم « المولدين » ، واصطلحوا على العربي من أم غير عربية كلمة « هجين » ، والهجنة في الشيء تعني - لغة - العيب او النقص وعدم الكمال .. وجرى العرف عند أمراء بني أمية - في أوائل عهدهم - ان لا يبايعوا أموياً منهم بالخلافة ، إذا كان من أم غير عربية، مهما كانت ميزاته وكفاءته. وهذا ما أخّر بعض أمرائهم عن الوصول الى هذا المنصب ، وهم أحق من غيرهم به[1] ... »

كان من الطبيعي ان تؤدي هذه المواقف التي وقفها العرب من أبناء العناصر الأخرى ، الى أزمة نفسية ، واجتماعية ، وسياسية ، وأن تأخذ هذه الأزمة سبيلها الطبيعي ، وهو تبرم العناصر اللاعربية بالعرب ، وكل ما يمت اليهم بصلة .

وكان الفرس أكثر الشعوب التي دانت بالدين الجديد ، تبرماً وأشدها إحساساً بوطأة التفوق العربي ، فعمدوا الى الالتفاف

---

١ - « هرون الرشيد » ج ٢ ، تأليف الدكتور عبد الجبار الجومرد (بيروت ، ١٩٥٦) ، ص : ٣٣٢ - ٣٣٣ .

بالعرب وتطويقهم على ثلاث جبهات : الانقسام الداخلي ، والاعتقاد الديني ، والتنافس الحضاري . ولم يكن أمامهم من سبيل الى التغلب على تلك الأزمة العنصرية إلا باتباع هذه الاستراتيجية ، أي مقاومة العرب من الداخل بالانحياز الى الجانب الذي يعارض السلطة ، والتهجم على العقيدة الدينية نفسها والعمل بنواهيها ، وعصيان أوامرها ، ثم بالحملة أخيراً على ماضي العرب ، ونشر مثالبهم ، والغض من قيمتهم ، وتصويرهم على أنهم أهل بادية ، لا يفقهون العمران ، ولا يعرفون شيئاً من الحضارة ..

الانقسام العربي الداخلي

انقسم العرب عهد معاوية الأول حول الخلافة ، ولمن تكون ، وكيف تنتقل من خليفة الى آخر ، فنشأت عدة أحزاب ، وظهرت عدة نظريات ، وقامت عدة حركات سياسية بين العرب أنفسهم ، ولا سيا بعد موقعة صفّين وظهور الخوارج ، حتى اذا استتبّ الأمر لمعاوية هدأت الحال بعض الشيء ، ولكنها عادت فاضطربت حين ولي ابنه يزيد ، فثار الحسين ابن علي ، وتبعه عبد الله بن الزبير ، واشتد ساعد الخوارج وراحوا يقيمون بعض البلاد ثم لا يقعدونها على حال .. وكثرت المنافسات بين القبائل ، كما كثرت الفرق الدينية .

واستطاع الأمويون ان يتغلبوا شيئاً فشيئاً على جميع هذه

الثورات ، وكان تغلبهم يضعف شيئاً فشيئاً من قوة العرب عامة ، ومن سلطانهم خاصة ، ويثير عليهم النفوس ، ويزيد الأحقاد ، فلم يمض أقل من قرن على حكمهم حتى وصلوا الى وضع لم يجدوا معه من يناصرهم من العرب سوى القلة من أعوانهم المقربين .

ومما زاد الأمر بلبلة ان سلوك بعض الخلفاء من الأمويين كان يزري بالعرب ، ويُذهِب هيبتهم من النفوس ، ويضع الحجة بيد أعدائهم ممن يسعون في القضاء عليهم ، والتخلص من سيادتهم . والوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي ولي الخلافة عام ١٢٥ هـ . يأتي في أول هؤلاء ، ويفتتح عهد الانهيار الأموي ، فقد بلغ من استهتاره انه « أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة فمقته الناس لفسقه ، وخرجوا عليه[١] ... »

ثم دبّ الانقسام الى الأسرة المالكة نفسها ، فبعد ان وثب « يزيد الناقص » على ابن عمه الوليد الآنف الذكر وقتله ، خلفه – وهو لم يتمتع بخلافته سوى نصف عام – ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي خلع بعد سبعين ليلة ، إذ خرج عليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وأبعده ، ثم اضطره الى التسليم والمبايعة .

كان الحزب العباسي قد أخذ في تنظيم نفسه سراً ، معتمداً

---

١ – « تاريخ الخلفاء » تأليف جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ، ١٩٥٢) ص : ٢٥٠ .

في الدرجـة الأولى على سخط الموالي ، والتقاة – وهم الفقهـاء والقراء والصحابة الذين كانوا يشجبون تصرفات بعض الخلفاء ، ومسالك الولاة والقضاة ، وينكرون طريقة الحكم باعتبارهـا لا تنطبق على الشريعة – والخوارج ، والعلويين الناقمين لما حل بابناء علي وأتباعهم، من تنكيل واضطهاد .

وهكذا .. تفرقت كلمـة العرب ، وسادهم الشقاق ، فـلم يستطيعوا إزاء القوى المناهضة التي راحت تتكتل ضد الأمويين ان يحتفظوا بسيادتهم .

وقـد وصف محمد بن علي العباسي المعروف بالإمـام تشتت الأهواء ، وانقسام الولايات العربيـة ، في خطبة شهيرة ، قـال فيها : « .. أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، وأمـا البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية صادقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية ، وعداوة راسخة ، وجهل متراكم . وأما مكة والمدينة ، فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النِحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وهامـات وكواهـل ، ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعـد ، فاني أتفاءل الى المشرق والى مطلـع سراج الدنيـا ،

ومصباح الخلق[1] ... »

التراخي الديني

كان من شأن هذه الانقسامات السياسيـة ، وتعدد الفرق والمذاهب الفكرية ، واستهتار الخلفـاء والولاة بابسط قواعـد الشريعة والخروج على مقتضياتها وأحكامها ، ان تراخي الشعور الديني ، وتضاءل اهتمام الناس بالايمان وأصوله ، وعمّ « الشك » أوساط المثقفين والباحثين ، فما أوفى العهد الاموي على نهايته ، وقامت الدولة العباسية ، حتى انتشرت « الزندقـة » ، وشاع الفسق ، وفشت الإباحية في الطبقة الارستقراطية وطبقة الادباء والشعراء والمغنين ، وأسفرت عن وجهها ، بعد ان كانت كامنة ، في بشار وأبي نواس وغيرهما .. ولم يكن الموالي – والفرس خاصة – غرباء عن نشوء هذا الجو المثقل بالمفاسد ، فقـد كانوا يرون رأي العين ان العرب إنمـا توصلوا الى مـا وصلوا اليه من رفعة وغلبة وتفوق ، باخلاقهم في أول منزلة ، وإيمانهم الروحي الرفيع ، وتنكبهم في عهـد الراشدين وعمر بن عبـد العزيز ، مزالق الشبهات ، والانصراف عن الشهوات ، فأخذوا يعملون عن عمد وغير عمد ، على نزع ذلك السلاح من أيديهم ، ويجهدون

---

١ – نقله الدكتور حسن ابراهيم حسن في « تاريخ الاسلام السياسي » ، الجزء الأول ، عن كتاب « التقاسيم في معرفه الأقاليم » (القاهرة ، ١٩٣٥) ص : ٥٤٤ .

في إفساد عقائدهم، وبلبلة عقولهم، حتى وفّقوا الى ما أرادوا..

وأعانهم على ذلك، سلوك عدد غير قليل من الأمراء والحكام والخلفاء والقضاة الذين كانوا هم البادئين بما يصح ان يسمى «الزندقة السياسية». وقد بيّن للأمويين أكثر من شاعر، وواعظ، وناصح، عواقب هذا السلوك، وفيهم من نبههم تنبيهاً صريحاً الى سوء أعمالهم، فهذا عباس بن الوليد يخاطبهم قائلاً:

إني أعيذكم بالله من فتنٍ مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إنّ البريّة قد ملّت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

وهذا خالد بن صفوان يروي لهشام بن عبد الملك قصة ملكٍ أخذه الغرور، وافتخر بما بلغه من رفعة شأن، أمام «رجل من بقايا حملة الحجة»، إذ سأل:

– أرأيتم أحداً أُعطي مثل ما أُعطيت؟

فأجابه الرجل:

– أتأذن لي بالجواب؟

– نعم!

أرأيت ما انت فيه، أشيءٌ لم تزل فيه أم شيء صار اليك ميراثاً، وهو زائل عنك الى غيرك كما صار اليك؟

– كذا هو!

– أفتعجب بشيءٍ يسير لا تكون فيه إلا قليلاً، وتنقل عنه طويلاً، فيكون عليك حساباً؟

– ويحك ! فأين المهرب ؟ وأين المطلب ؟

– إمّا أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله بما ساءك وسرّك ، وإمـــا ان تنخلع من ملكك ، وتضع تاجك ، وتلقي عليك أطمارك ، وتعبد ربك .

اني مفكرٌ الليلة وأوافيك السحر !

وعندما أقبل السحر قرع الملك الباب على الرجل وقال :

– اخترت هـذا الجبل وفلوات الأرض ، وقد لبست عليّ مساحي ، فان كنت لي رفيقاً ، لا تخالف !

ولزمـــا الجبل الى ان ماتا . وفيه يقول عديّ بن زيد العباديّ :

أيهـــا الشامت المعيّر بالدهر ، أأنت المبرّأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ؟ بل أنت جاهل مغرور !
من رأيت المنون خلّدت ؟ أم من ذا عَليْه من أن يضام خفير ؟

تلك هي الاشارات والتصريحات والمواعظ التي كان يومىء بها رجـــال الفكر وأهل النظر الى التراخي الديني الذي ساد الحيـاة الاجتماعية عهد الأمويين ، وأفضى الى زوال ملكهم ، وتلك هي المعـــاني الأساسية التي ورثها أبو العتاهية عن الجيل الذي سبقه ، وبها تأثر ، اذ ان جيله ظلّ تتمة طبيعية المنحدر الذي مشت فيه حضارة الامويين ، بفعل الانقسام والتصدع في صفوف العرب ، وتراخي أخلاقهم ، ثم بفعل الأزمة العنصرية التي ظل ذلك المجتمع يعاني منها الأمرّين .

وكان من نتائج انقسام العرب ، وتراخي أخلاقهم ، ان دب الوهن الى ثقة النـــاس بهم ، فلجأ الفرس – وهم الذين كانوا قد احتلوا بعض اجزاء الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وكانت لهم السيطرة على مملكة المناذرة في العراق – الى استغلال هذا الضعف الطارىء على العرب في أعقاب ظفرهم وفتوحـــاتهم ، وراحوا يقابلون بين حضارة فارس ، وأوضـــاع العرب في الجاهلية ؛ ويخرجون من هذه المقابلة بتركيز أفضليتهم في الادارة والعمران والثقافة ورفاهية الحياة ، وبيان تفوقهم ، والإزراء بهؤلاء الذين أُتيح لهم في غفلة من الزمن ان ينتصروا على كسرى ، ويخضعوا بلاده ، ويجعلوا من أبنائها « مواليَ » وعبيداً ، بعد ان كانوا هم سادة العرب ... وتلك هي « الشعوبية » الـــتي غمرت العهود العباسية وشغلت ناسها ، وملأت دنياها !

اتجه الشعوبيون ، أول ما اتجهوا – أي في العهد الأموي – نحو إقرار المساواة بين أبنـــاء الملة الواحدة ، وتترّسوا بالحديث الشريف : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » والآيـــة القرآنية : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وانصرف قسم كبير منهم الى حيازة الفضائل والمعارف والتحلي بالمعـــاني والصفات التي تجعلهم موضع الاكرام الديني والتفضيل المعنوي ، فكان منهم ذلك العدد الوافر من العلمـــاء والنحاة واللغويين والحفظة والقراء والفقهـــاء ، بينما كان همُّ العرب منصرفاً الى المناصب

والولاية والرئاسة والقيادة، حتى اذا تمكن العباسيون من زحزحة الأمويين عن سدّة الملك بمعونة الموالي والفرس ، وسائر العناصر اللاعربية ، انتقل الشعوبيون من طلب المساواة ، الى «تفضيل» العجم على العرب ، وانتقل العرب من الهجوم الى الدفاع .

وكان مدار هذاك التفضيل بداوة العرب ، وحضارة الفرس في جانب ، والتحلل من اوامر الدين ونواهيه ، أي « الزندقة » في جانب آخر . وهذا ما يمثله أبو نواس أصدق التمثيل ، ويعطي عنه أوضح الصور :

قالوا : ذكرت ديار الحيّ من أسدٍ
لا درّ درّك ، قل لي من بنو أسد ؟
ومن تميمٌ ، ومن قيسٌ وإخوتهم
ليس الأعاريب عند الله من أحد !

وفي مقام آخر :

دع الأطلال تسفيها الجنوب | وتبلي عهد جدّتها الخطوب
وخلّ لراكب الوجناء أرضاً | تخبّ بها النجيبة والنجيب
بلاد نبتُها عُشرٌ وطلحٌ | وأكثر صيدها ضبعٌ وذيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهواً | ولا عيشاً فعيشهم جديب

وفي مقام ثالث يظهر به وجه تفضيله للفرس :

دع الطلل الذي اندثرا | يقاسي الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى | وسابورٌ لمن غبرا

منازِهِ بين دجلة و الفرات تفيّأت شجرا
بأرضٍ باعد الرحمان عنها الطلح والعُشرا
ولم يجمل مصايدها يرابيعاً ولا وجرا
ولكن حور غزلان تراعي بالملا بقرا

ويفتخر ، في مقام رابع ، بالفرس على انهم «بنو الأحرار» :

بلدةٍ لم تصل كلبٌ بها طنباً | الى خباء ، ولا عبسٌ وذبيان
ليست لذهل ولا شيبانها وطناً | لكنها لبني الأحرار أوطان
أرض تبنّى بها كسرى دساكره | فما بها من بني الرعناء انسان
وما بها من هشيم العرب عرفجة | ولا بها من غذاء العرب حطبان

فاذا عرفت ان أبا نواس كان سيد شعراء جيله ، وبه كانوا يقتدون ، وعنه كانوا يأخذون ، وعرفت المكانة التي احتلها لدى الخلفاء والأمراء والوزراء ، لمست لمس اليد ، جو ذلك المجتمع ، وما يرسب في أغواره من صراع على التفوّق بين الفرس والعرب ، وتنافس على الاستئثار بالمحامد والثناء .

بيد ان العرب لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه التهجمات ، ولا توانوا طرفة عين عما يراد بهم من وراء تلك الأهاجي والدعايات ، بل وقفوا يدافعون ويناضلون بجد وحماسة ، ويذكرون مثالب أعدائهم ، ويشيرون اكثر ما يشيرون الى ما تميزوا هم به من فضائل خلقية ، ومعانٍ نفسية ، وشمائل نبيلة . غير ان هذا الموقف الدفاعي كان ينطوي ، ككل حالة من حالات الدفاع ، على شيء من الوهن ، لأنهم فقدوا مواقع القوة

التي يتمدحون بها ، وخسروا الهيبة التي تجعل لكلامهم وقعاً في النفوس ، بعـــد ان انتشرت الزندقة ، وعمّ الفساد ، وتحلل الناس – إلا قليلاً – من سلطانهم المعنوي ، وانتصر العباسيون بحراب أهل خراسان ومن والاهم من أهل تلك البلاد .

والثغرة الثانية المهمة في جهاز الدفاع العربي ، انما كانت في ردهم على الهزل بالجد ، ودحضهم للعبث بالرصـــانة ، وأخذهم الزندقة بالعنف ، دون لحاظٍ منهم للجو الروحي السائد الذي يحمل تبعة نشوئه امراؤهم وولاتهم وخلفـاؤهم ، سواء في ذلك الأمويون منهم والعباسيون .

لقـد كان الماجنون والخلعاء والفاسقون والمتهمون في دينهم – وكلهم من الشعوبيين – أمثـــال بشار وأبي نواس ومطيع بن أياس ووالبة بن الحباب ، وغيرهم ، يغشون القصور ، وينادمون الخلفاء ، ويتصلون بالوزراء والولاة ، وينشرون افكارهم ويتناقل الناس نوادرهم ونكاتهم ، ولا يلقون من يحاربهم بسلاحهم الهازىء الساخر في المعسكر المقابل ، وكان أولو الأمر يردون على الزنادقة ، لا بالفكر والحجة والمنطق ، وإنمـا بالسجن والقتل والتعذيب والتشريد ، وبطون الكتب التاريخية محشوة باخبار المهدي وفتكه بالزنادقة ، وتشديده النكير عليهم ، حتى أصبح الاتهـام بالزندقة وسيلة في يد كل مغرض للايقاع بعدوه ، وأداة في يد كل حاكم للتنكيل بأخصامه .

هكذا أحدقت الشعوبية بالعرب وطوّقتهم والتفتت عليهم ، واستولت في أشخـــاص بني برمك عهد الرشيد ، على مقدرات

الخلافة ، ولكن الرشيد استطاع بمـا أوتي من حسٍ مرهف وحنكة ودهاء ان يقضي على البرامكة ، دفاعاً عن ملكه لا عن امته ، حتى اذا قضى نحبه ،رجعت الشعوبية وخاضت معركتها الفاصلة في الصراع على السلطة الذي وقع بين الأمين والمأمون ، فكانت لها الغلبة .

وقد شهد أبوالعتاهية جميعهذه المعارك الفكرية والسياسية، وأُقحم فيها ، وناله منها الأذى والهوان ، وكان يقف منهـا موقف المفكر ، المتأمل ، وفكره منصرف الى تقلب الأحوال، وبلاء الدنيا ، وزوال الناس عنها ...

حياة اجتماعية مضطربة

لم تكن الحياة الاجتماعية في ظـل ذلك النزاع العنصري ، والتنافس الحضاري ، مع ما يرسب في قرارتها مـن تهالك على المتعة ، واسترسال مع الشهوات، وغلوّ في نشدان اللذائذ الحسية الذي يتمثل في كثرة الجواري والغلمان والقيان - لم تكن عـلى شيء من الدعة والهدوء ، فان ذلـك الركض وراء القصف والمجون ، وتلك الاشادة بالخمرة وفضلها على الناس مما لم يعرفـه عصر ولا بيئة على نحو ما ظهر في مجتمعات العراق آنئذ ، وذلك الاغراق في التظاهر بالفسق وتحدي قواعد الاخـلاق والدين ، كلها علامات اضطراب اجتماعي عميق الغور يستحيل معه على المرء أن يستقر على حال ، بالغاً ما بلغ من الرجاحة والقوة .

وكانت حياة الادباء والشعراء أحفـل الحيوات بهـذا

الاضطراب ، واكثرها تعرضاً له ، وعلوقاً بحبـائله ، اذ كانت تقوم ، أكثر ما تقوم ، على أعطيات الخلفاء والامراء والوزراء، وكل ما فيها من معان واحاسيس وخيالات وعواطف وافكار يدور حول الشراب ، وحب الجواري ، والغناء ، والمديـح ، والغلمان ، ومجالس اللهو ، واحاديث الزندقة ، وأخبار البلاط الخليفي ، وتهاجي الشعرا، فيما بينهم . ولا شيء غير ذلك ..

واذا أنت رجعت الى أخبـار مطيع بن أياس كما يرويهـا صاحب « الاغاني » وقعت على صورة حية ، ناطقة ، لحياة ذلك المجتمع اللاهي ، العابث ، الماجن ، ان في الكوفة ، وان في البصرة ، وان في بغداد

كان مطيع منقطعاً الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم انقطع في الدولة العباسية الى جعفر بن أبي جعفر المنصور ، وقد وصفه أحدهم بقوله : « كان اذا حضر ملكك، واذا غاب عنك شاقك، واذا عرفت بصحبته فضحك » . « وكان هو ويحيى بن زياد الحارثي ، وابن المقفّع ، ووالبة بن الحباب (استـاذ أبي نواس) يتنادمون ولا يفترقون ، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك ، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة » . وكانت بينه وبين حمّاد عجرد مهاجاة نشأت عن تعلق كل منهما بجارية عرفت بظبيـة الوادي ، قال فيها مطيع :

ألا يا ظبية الوادي وذات الجسد الراد
وزين المصر والدار وزين الحـيّ والنـادي
وذات المبسم العذب وذات المبسم البادي

أما بالله تستحيين من خُلّة حمّاد
فحماد فتى ليس بذي عز فتنقادي
ولا مال ولا عز ولا حظ لمرتاد
فتوبي واتقي الله ...

وأخذ هذه القصيدة أحد المغنين فغنى فيها «فلم يبق بالكوفة سقّاءٌ ولا طحّان ولا مكارٍ الا وغنى فيها ..»

وقد أحبَّ مطيع هذا نحواً من عشر جوار ، تحدث عنهن في اشعاره، فيهنَّ واحدة يقال لها «جوهر» ، واسم سيدتها «بربر» نظم فيها أبياتاً منها :

أما والله يا جوهر لقد فقت على الجوهر
فلا والله ما المهديّ أولى منك بالمنبر
فان شئت ففي كفيك خلع ابن أبي جعفر

وحين أُنشد الخليفة المهدي هذه الابيات قال : «اللهم العنْهما جميعاً ! ويلكم ! اجمعوا بين هذين قبل أن تخلعنا هذه القحبة ! »

هذا الشاعر الخليع المتهتك ، تلميذ الوليد بن يزيد الاموي ، يمثل بأصدقائه وحياته وأشعاره وسيرته ، الجو الاجتماعي الذي نشأ فيه أبو العتاهية ، والبيئة الفكرية التي لم يستطع هذا أن يتخلص من تأثيرها في نفسه ، الا بعد زمن طويل ، وتجارب مريرة وقاسية ...

حياته وشخصيته

لم تكن شخصية أبي العتاهية على شيء من التماسك والانسجام، ولم يستطع بسبب من هذا « التفكك » في نواحي شخصيته وتناقض مظاهرها ، أن يفرض نفسه على معاصريه في جانب أو قضية ، حتى اذا تقادم عليه الزمن ، واستغرق في يأسه واستولت عليه فكرة « الخيبة » كان كل ما حفظ الناس عنه أنه شاعر الزهد .

وحقيقة الأمر أنه لم يكن زاهداً ، وانما سيق سوقاً الى طريقة في التفكير ، الى رؤية للعالم ، غريبة في بيئته وعصره ، هي تلمس العذاب ضمن السرور ، وادراك النهاية في صميم البداية، والاحساس بالألم خلال الاستمتاع باللذة ، والشعور بالموت يبصبص بعينيه الرهيبتين وراء الحياة .

وهذه الرؤية الغريبة نجمت عن مزاج خاص ، عن تكوين نفسي وصحي قل نظيره ، فهو اذ يشهد نهاية كل عمل او جهد قبل أن يبدأ به ، تختلط لديه القيم ، وتلتوي عليه المقاييس فلا

يرى فرقاً بين أن يكون صعلوكاً مثل أبي الشمقمق - وهو من الشعراء الذين عاصروه - أو يكون نديماً للامراء والخلفاء مثل أبي نواس ، أو يكون تقياً ناسكاً متعبداً مثل الحسن البصري ورابعة العدوية ، أو يكون أخيراً عاشقاً تقض مضاجعه رؤى النعيم وأحلام الهناءة مثل العباس الاحنف وقيس بن ذريح .

تلك هي « مشكلته » الشخصية في جوهرها ، ومن كان هذا مزاجه ، بدا للناس غير طبيعي ، وحسبوه « معتوهاً » فــلا يولونه شيئاً من الاحترام ، لا لأنه لا يستحق الاحترام ، بل لأنه في واقع مسلكه العملي ، يأباه لنفسه ولا يطلبه ، أو هو بتعبير آخر ، لا يحترم الاحترام ، وكان الناس يتبعونه في ذلك على غير وعي منهم ، ولكن فيما يخص شخصه ، ويتصل بشأنه .

ثم جاءت ظروف حياته ونشأته من بعد ، تشده شداً الى تلك الطريقة في التفكير والسلوك ، وتؤكد له صحة رؤياه للعالم وتمده كل يوم ، وكل ساعــة ، في كل ما يحدث على الصعيدين : الاجتماعي والسياسي ، بالف دليل ودليل على ان رأيه في الناس ، والدنيا ، والحياة ، هو الصحيح ، وأن كل ما عداه مــن آراء ، باطل وهراء ! ..

لماذا ابو « العتاهية » ؟

وهذه الكنية التي لصقت به لم تكن جزافاً ، ولا عبثــاً ، ومردّها الحقيقي الى سلوكه بعد ان شب وعرف ، واصبح يحتك بالناس من حوله ، وأصبح الناس يحتكون به ، فالعتاهية صيغة

لغوية للعته (البلاهة الناشئة عن انحراف عقلي) ، وشأنها اللغوي هو شأن بعض الكلمات الشائعة كالرفاهية ، والكراهية وما أشبه . . .

جاء في « الاغاني » : « أبو العتاهية لقب غلب عليه ، واسمه اسماعيل بن سويد بن كيسان مولى عنزة ، وكنيته أبو اسحاق ، وأمه أم زيد بنت زياد المحاربي .. وقال المهدي يوماً لأبي العتاهية : « انت انسان متحذلق معتّه » فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته .. وقال محمد بن يحيى : « كني بأبي العتاهية ، أن كان يحب الشهرة والمجون والتعته ...»

وجاء في « تاريخ بغداد » لابن الخطيب . « أبو العتاهية لقب لقّب به لاضطراب كان فيه . وقيل : بل كان يحب المجون والخلاعة فكني لعتوّه « أبا العتاهية » .. » (١)

ذلك يفيد أنه لم يعرف بهذا الاسم الا بعد قدومه .. الى بغداد ، أي يوم كان في العشرينيات من سنيه .

أرومة شعبية

يضرب أبو العتاهية في أعراقه الى أرومة شعبية ، أي أنه لم يكن ينتمي الى أسرة أرستقراطية في العرب ، ولا الى قبيلة ذات بأس وجاه ، ولا كان أبوه ولا أمه من الأغنياء فقد « كان

---

١ - « تاريخ بغداد » للحافظ ابي بكر ابن الخطيب البغدادي ، الجزء السادس (القاهرة - بغداد ، ١٩٣١) ص : ٢٥٠

محمد بن أبي العتاهية يذكر ان أصلهم من عنزة ، وان جدهم كيسان كان من أهل عين التمر (قرية عربية اختلف المؤرخون والجغرافيون حول موقعها ، ولكنها لا تعدو ان تكون عراقية كما سنبين) فلما غزاها خالد بن الوليد ، كان كيسان جدهم هذا يتيماً صغيراً ، يكفله قرابة له من عنزة ، فسباه خالد مع جماعة من صبيان أهلها ، فوجه بهم الى أبي بكر ، فوصلوا اليه - وبحضرته عباد بن رفاعة العنزي .. - فجعل ابو بكر يسأل الصبيان عن أنسابهم ، فيخبره كل واحد منهم بمبلغ معرفته ، حتى سأل كيسان ، فذكر له انه من عنزة ، فلما سمعه عباد يقول ذلك ، استوهبه من أبي بكر رضي الله عنه - وقد كان خالصاً له ، فوهبه له ، فأعتقه ، فتولى عنزة .. وكان ابو العتاهية وابراهيم الموصلي من أهل المزار جميعاً . وكان ابو العتاهية وأهله يعملون الجرار الخضر ، فقدما الى بغداد ثم افترقا ، فنزل ابراهيم الموصلي بغداد ، ونزل ابو العتاهية الحيرة .. فولاء ابي العتاهية من قبل أبيه لعنزة ، ومن قِبَل أمه لبني زهرة ، ثم لمحمد بن هاشم ابن عتبة بن ابي وقاص ، وكانت امه مولاة لهم ، يقال لها : أم زيد[1] .

كان إذن عربياً في أصوله ، ولكنه « مولى » في طبقته ونشأته ، وكان أبوه حجاماً ، وقد مارس هو نفسه في حداثته صنع الجرار ، فاذا أراد غشيان مجلس ، قدم نفسه بقوله : « أبو

---

١ - الأغاني : أخبار ابي العتاهية .

إسحاق الخزّاف ». وعندما ذاع في الناس انه شاعر اعتذر عن أرومته الشعبية بقوله :

ألا إنما التقوى هي العزّ والكرم
وحبّك للدنيـــا هو الفقر والعدم
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ
اذا صحّح التقوى، وان حاك او حجم

وقد رد مرةً على رجل افتخر عليه بأجداده ، قائلاً :

دعني من ذكر أب وجـــدّ ونسبٍ يعليك سور المجـــد
ما الفخر إلا في التقى والزهد وطاعةٍ تعطي جنان الخلد
لا بُدّ من وِردٍ لأهل الوِرد إما الى ضحلٍ وإما عِدّ [1]

وكان لهذه الأرومة الشعبية يد طولى في استهتاره بنفسه ، وتخلّيه في كثير من المواقف عن كرامته ، لا سيما انـه عاش في عصر التوت به المقاييس واضطربت القيم ، ولم يبق فيه للمرء من عاصم إلا ان ينمى الى أسرة نبيـلة ، او يتحصن بمظاهر النعمة والترف، او يتولى عملاً في الدولة لقاء خدمة أو موهبة ، وهذه كلها مما لم يتيسر لأبي العتاهية شيء منه .

نشأته

أجمع المؤرخون على انه ولد في عين التمر عـــام ١٣٠ هـ (٧٤٧ م) . أي قبل انهيار الحكم الأموي بسنتين . و « عين

---

١ – الضحل : الماء القليل الذي لا عمق له، والعد : المياه الجارية المستمرة في جريانها .

التمر » هذه « بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة ، بقربها موضع يقال له شفاثا ، منها يجلب القسب [1] والتمر الى سائر البلاد ، وهو بها كثير جداً ، وهي على طرف البرية ، وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام ابي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ للهجرة . وكان فتحها عنوة ، فسبى نساءها وقتل رجالها[2] . . »

وقد ذكر ابن خلّكان ان عين التمر « بليدة بالحجاز قرب المدينة » ثم روى ان ثمة من يقول : « انها من أعمال سقي الفرات »[3] . وقد عقّب السيد محسن الأمين في « أعيان الشيعة » على هذه الروايات المتناقضة : « أقول : الصواب ، ان مولده بعين التمر بالعراق لا بالحجاز ، وهي التي يقال لها اليوم « شفاثا » وان صح ان بالحجاز ما يسمى عين التمر ، فليس مولده به » [4] . وتدل ظروف نشأته من بعد ، ومجمل ما عرف من أخباره انه عراقي المولد ، ولم يكن لأسرته صلة بالحجاز .

غير ان النقطة الغامضة التي لا سبيل الى جلائها ، بما لدينا من مصادر ، هي : متى انتقلت أسرته الى الكوفة ؟

— أكبر الظن ان الكوفة اجتذبت اليها أبناء البلاد المجاورة ،

---

١ — القسب : التمر اليابس ، يتفتت في الفم ، صلب النواة (لسان العرب)

٢ — « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، مادة « عين » .

٣ — « وفيات الأعيان » (طبعة القاهرة ، ١٩٤٨) ص : ١٩٨ .

٤ — أنظر « أعيان الشيعة » : الجزء الثاني عشر ، ص : ٨٠ .

بعد ان قام فيها أبو العباس السفاح – اول خليفة عباسي – ، وأثنى على أهلها ، وجعلها عاصمة الدولة ، فأقبل عليها الناس ، وكثر العمران ، وتقاطر اليها أصحاب الحِرَف والصناعات كالحائكين والخزافين والنجارين والحدادين والحجامين ، ومن إليهم .. وهذا يعني ان والد أبي العتاهية الذي كان يزاول صنع الجرار تارة ، والحجامة تارة ، جاء الى الكوفة في حدود عام ١٣٣ هجرية ، اي بعد سنة او نحوها من قيام الدولة العباسية ، وانتقال العاصمة الى الكوفة حيث يتسع مجال الرزق امامه ، وتنفتح ابواب الحياة القريبة من الرخاء !

وعندما بلغ الصبي إسماعيل – وهذا هو اسمه السن التي يستطيع معها الإسهام في معونة والده ، وكان يصنع الجرار ، أخذه هذا الى « محترَفهِ » ، وبدأ الحياة العملية ولما يبلغ – على الأرجح – العاشرة من سنيه . ثم أخذت تظهر عليه مخايل النجابة ، ويتفتح وعيه على أشياء وحوادث وقضايا تتصل أكثر ما تتصل بالمقابر ، والحداد ، ومظاهر الحداد ، والبكاء على الأموات ، ولا يبعد ان يكون لبيئته المنزلية الخاصة أثر في هذه الانطباعات ، حتى اذا تمكن من النظم ، رأيناه وهو يدور بقفص الجرار في احياء الكوفة ، يسأل بعض الفتيان ، اذ عبر بهم ورآهم يتذاكرون الشعر ، وقد وضع عن ظهره القفص :

– يا فتيان ! أراكم تتذاكرون الشعر ، فهل لي ان اقول شيئاً منه ، على ان تجيزوه ؟

ولكن الفتيان تلقوه بالهزء والسخرية ، مما أثاره ، فأغراهم :

– ان فعلتم فلكم عشرة دراهم !

– نعم !

– لا بد ان يشترى بأحد القمارين رطب يؤكل ، فانه قمار حاصل !

وألقى برهنه في يد أحدهم ، وقال :

– أجيزوا هذا الشطر : « ساكني الاجداث أنتم ...

وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع ، وعيّن نقطة منه اذا بلغتها الشمس ولم يجيزوا الشطر غرموا الرهن ، حتى اذا ظهر عجزهم ، راح يهزأ بهم ويتلو التتمة :

ساكني الأجداث أنتم مثلنا بالأمس كنتم

ليت شعري ما صنعتم ؟ أربحتم أم خسرتم ؟

وكانت هذه الحادثة سبباً في تسامع متأدبي الكوفة وطلاب الشعر فيها باسماعيل « الخزاف » ، وطفق هؤلاء يرتادون دكانه يتلهون بعض الوقت – وما اكثر اوقات اللهو لديهم ! – يستنشدونه ما نظم ، فينشدهم، ويأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبون أشعاره فيه .

والظاهر انه عاش في الكوفة الى ما بعد انشاء بغداد بعشر سنوات ، فنحن لا نسمع انه قدم اليها قبل ولاية المهدي، وبغداد اسست عام ١٤٠ هـ . وفرغ المنصور من بنائها بعد نحو من عشر سنوات ، وعاش حتى عام ١٥٨ هـ . وهو العام الذي مات فيه ووليَ المهدي . وذلك يعني ان اسماعيل – وكان يعرف بأبي

اسحاق – بلغ الثلاثين أو نحوها من سنيّه ، وهو بعيد عن الحياة الادبية التي عرفها من بعد ، غريب عن جو القصور ، والامراء ، والوزراء ، والولاة الذي غاص فيه الى اذنيه ، بعد ان جاء الى بغداد .

ويشهد الذين عرفوه في الكوفة ، على ما يروي صاحب « الأغاني » انه « كان نظيفاً ، أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جعدة ، وهيئة حسنة ، ولباقة ، وحصافة ، وكان له عبيدٌ من السودان ، ولأخيه زيد أيضاً عبيد منهم ، يعملون الخزف في أتون لهم ، فاذا اجتمع منه شيء ، ألقوه على أجير لهم ، يقال له ابو عباد اليزيدي ، من أهل طارق الجرار بالكوفة فيبيعه على يديه ، ويرد فضله اليهم . وقيل : بل كان يفعل ذلك أخوه زيد لا هو ، وسئل عن ذلك ، فقال : أنا جرّار القوافي ، وأخي جرار التجارة » .

والأمر الذي لا يرقى اليه شك ان أبا العتاهية نشأ نشأة الماجنين الخلعاء المخنثين في الكوفة ، ولم يكن في خلاعته ومجونه يستجيب لطبعٍ أصيل فيه ، كما هي حال أبي نواس وبشار ووالبة بن الحباب من معاصريه ، وانما هو اثر البيئة الكوفية آنذاك ، وتغلبها عليه ، في جانب ، ووضع أسرته المادية في الجانب الآخر الذي لم يكن يسمح له بمراس حياة أدبية ، أو فقهية ، فجرفه تيار العصر ، ومشى في سياقه ، وكانت تعتمل في قرارة سريرته فكرة شبه ثابتة عن « نهاية » الحياة ، رشحت اليه – في اكبر احتمال – من أيام « عين التمر » التي ذاقت البلاء يوم فتحها خالد

بن الوليد و « سبى نساءها ، وقتل رجالها » وظلت ذكرى ذلك الفتح عالقة بأذهان الاجيال التي تلت من ابنائها ، حتى عاش في جوها اهل اسماعيل ، ونزحوا عنها الى الكوفة . ولم تكن ذكريات الكوفة في مطلع الدولة العباسية بأفضل من ذكريات عين التمر ، فالمعارك بين مختلف الفئات الطامحة الى السلطة ، والمشاكل الناشئة عن هذه المعارك ، والافكار « السوداء » التي توحي بها ، كانت تملأ الافق ، وتغمر النفوس ، وتحدُّ من انطلاقها. وذلك هو السر الكامن وراء تلك الموجة الكاسحة من الخلاعة والتهتك والزندقة التي طغت على العصر كله . كانت طريقة في الهرب من الالم !...

غرامياته

على أن ابا العتاهية ظل سويّاً في طبعه وتصرفاته لم ينحرف، ولم يصب بشذوذ جنسي او عاطفي ، على نحو ما أصاب معظم زملائه الشعراء الذين اختلطوا بالفرس او انتموا الى ارومة فارسية ، وبقي على ميله الطبيعي الى الجنس الآخر ، ومر بثلاث تجارب غرامية كان لها الاثر الاقوى والافعل في حياته منذ شب عن الطوق الى ان قضى نحبه . ولا ندري ان كان قد مر ، خلال اقامته في الكوفة ، بتجارب تمهيدية ، سابقة لهذه الثلاث التي حفظها لنا التاريخ :

الاولى تعلقه بجارية من اهل الحيرة – وكان قد ترك الكوفة الى الحيرة قبل ان ينتقل الى بغداد – كانت تحترف «النواح» على

الاموات ، بيد انها مولاة لعبدالله بن معن بن زائدة ، وكان هذا يهواها بدوره ، فنشب من اجلها خلاف بينه وبين ابي العتاهية انتهى الى المهاجاة ، والاذى ، والاهانات يوقعها كل غريم بغريمه. وقد شاع هجاء ابي العتاهية لابن معن وذاع ، حتى ان الرشيد (هارون الخليفة) كان اذا رأى عبدالله بن معن تمثل بأبيات من هذه القصيدة :

سبحان من خصّ ابن معن بما   ارى به من قلة العقل

ويبدو أن هذه العلاقة بتلك الحسناء من الحيرة لم تنتج غير هذه العداوة الجائحة بين الشاعر وأبن معن ، ويبدو كذلك ان حسناء الحيرة امتنعت على عاشقها الكوفي ، ولم توله من عطفها غير الاستخفاف به والازراء عليه ، فاتهمها أبو العتاهيـــة – كما تقول الرواية – بالسحاق ، ولا يتاح لنا ان نعرف مدى ما في هذه التهمة من صحة ، ولكنها تشير من طرف بعيد الى العادات الاجتماعية ، ولا غرابة ان ينتشر السحاق بين النساء ، في مجتمع ينشأ به مثل ابي نواس في الرجال !

الا ان قصيدة ابي العتاهية في سعـدى – وهو اسم حسناء الحيرة – التي يقول فيها :

ألا يا ذوات السحـق في الغرب والشرق
أفقن فان ...
أفقن فان الخـــبز بالأدم يُشتهـــى
وليس يـسوغ الخـــبز بالخبز في الحلق

أراكنّ ترقعن الخروق بمثلها
وأي لبيب يرقع الخرق بالخرق ؟ !
وهل يصلح المهراس [1] الا بعوده ؟
اذا احتيج منه ذات يوم الى الدق

هذه القصيدة انتشرت في اوساط المخنثين والماجنين ، حتى بلغت مسامع عبدالله بن معن فتهدد أبا العتاهية ، وخوفه ، ونهاه عن التعرض لذكر مولاته ، ولا جدال انها بلغت سعدى ايضاً ، وكانت آخر ما يمكن ان يكون بينه وبينها من مودة .

والغرام الثاني لابي العتاهية انما كان تلك التي تزوجها ، وانجبت اولاده والمعروف منهم محمد الذي رثاه حين مات ..

ولكن غرامه الاكبر الذي أطاح بصوابه ، وفقد معه الشعور بكرامته ، واقام في حنايا ضلوعه ولم يفارقه حتى عند موته ، انما كان « عتبة » تلك الجارية التي لا نعلم عن شخصيتها الحقيقية شيئاً ، سوى انها كانت عند ريطة ابنة ابي العباس السفاح ، وانتقلت الى الخيزران وعاشت في كنف المهدي والهادي والرشيد ، وأنها رفضت حب ابي العتاهية مراراً وتكراراً ، حتى تحوّل عن الدنيا ، والزم نفسه بالنسك ، وهجر العالم ، وتبرّم بالناس والحياة ..

وكانت هذه التجربة الغرامية القاسية هي التي ضعضعت الاساس من كيان أبي العتاهية ، وحولته الى رجل ثقيل الظل ،

١ – المهراس : الهاون .

مكفهر الجو ، مظلم الروح ، يغوص في عتمات الوجود ، ويغيب عن كل ما فيه ليشهد الضياع والخراب ، ويحس بالموت في كل زاوية ، والعذاب في كل ناحية ، بعد أن كان المغنون يتغنون بمثل قوله :

يا رب يوم رأيتني مرحاً آخذ في اللهو ، مسبل المئزر
بين ندامى تحث كأسهم عليهم كف شادن أحور

أخلاقه

قد يكون أبو العتاهية المثل الوحيد الذي يقدمه تاريخ الادب للعربي ، على انفصام الشخصية بين طورين من اطوارها ، فاسماعيل الشاب العابث اللاهي المتزندق الذي لم يكن يبالي بشيء قبل ان يتعرف الى عتبة ، غير ذلك الشاعر المتكسب الذي يتقرب من الخلفاء من أجل جارية ، وينال على يدهم الاذى والسجن والهوان والجلد ، بنسبة ما يحظى لديهم بالتقدير والهبات الجزيلة والاعجاب العظيم . الاول فتى يفيض بالعافية ، ولا يرى الناس منه غير الذكاء والجنوح الى العبث بالواقع ، ومطاردة اللذائذ ، والثاني مضطرب ، قلق ، غامض العقيدة ، مشوش الذهن والروح . الاول عاشق لا يهتم أخفق أو نجح ، والثاني عاشق رفضته التي عشقها ، فركن الى الهم واليأس ، وانطوى من اخفاق حبه على جرح لم يندمل ، وعذاب لم ينقطع ، وكآبة خانقة لا حد لها ولا نهاية ، الضرف معها الى جمع المال ، والزراية على الناس ، وهجاء الافاضل والاراذل دون تمييز ، فاذا حدث

لاحت في ثنايا أحاديثه بوارق الزندقة ، واذا اتهم دافع عن نفسه بالنفاق ، واذا اصابه مكروه ضرع وذل ، واذا خلا الى نفسه عاد الى مجون شبابه ، واذا لقي بالناس أمعن يعظهم بالتقوى ، ويدعوهم الى الزهد ، ويذكّرهم بالموت ..

وتجمع له من ذلك كله صيتان : الصيت الاول أنه «مذبذب في مذهبه ، يعتقد شيئاً ، فاذا سمع طاعناً عليه ، ترك اعتقاده اياه ، وأخذ غيره ! » والصيت الثاني انه « معتوه » يستخف بنفسه ، فيحمل طوراً « زاملة المخنثين » [1] ويدور في الأزقة والشوارع ،ويجلس طوراً يحجم اليتامي والفقراء وأبناء السبيل حتى اذا عوتب في ذلك ، قال : « أردت ان اضع من نفسي حسبما رفعتني الدنيا ، واضع منها ليسقط عنها الكبر ، واكتسب بما فعلته الثواب !...» وهو يعلم انه يقدم على عمل لا دراية له به ، وانه انما يقدم عليه استدراراً لمال لا يحق له أخذه ..

واعجب ما في هذه الحركات التي كانت تصدر عن ابي العتاهية ، بعد تعلقه بعتبة انه ظل على شاعريته الزاخرة ، الدافقة ، وقريحته الفياضة ، وظل شعره ينبيء عن فكر صاف لا تشوبه شائبة من هستيريا ، أو اضطراب ، وانه توصل الى آفاق ومعان حازت اعجاب المعاصرين جميعهم ، ووفق الى موضوعات لم يسبق لغيره من شعراء العربية ان طرقها ، او حام حولها الا في لفتات عابرة ، او ومضات خاطفة .

---

١ - الزاملة : وعاء يشبه « كشكول » المتسول ، او « جعبة » الصياد .

والحقيقة هي أن خُلقه الأصيل كان قبل كل شيء ، خلق شاعر ، يحب الحياة ، ويزدهيه الحب ، ويأتلف مع الجمال ، ويصبو الى المتعة ، ولكن ظروفه العامة والخاصة ، لم تدع أمامه مجالاً للفرح بالحياة ، ولا سبيلا الى الاقبال على الناس ، وقضت عليه ان يعشق فلا يلقى صدى في نفس تلك التي عشقها ، وحملته حملا على سلوك طرائق تتنافي وحقيقته في كثير من الاحيان والحالات ، فبدا في الظاهر بخيلا ، وضيعاً ، مذبذباً ، مضطرباً كثير الشكوى ، عديم الصبر ، وهو في جوهره غير ذلك ...

عقيدته

لم يختلف المؤرخون في شيء مثل اختلافهم في تقرير العقيدة التي كان يؤمن بها أبو العتاهية إذ روى صاحب «الأغاني» مختلف الروايات التي كان يتناقلها الناس عنه في هذا الشأن ، كما روى دفاعه عن نفسه ضد من اتهمه بالزندقة ، فقال : « ... كان قومٌ من أهل عصره ينسبونه الى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتجّون بأن شعره انما هو في ذكر الموت والفناء ، دون ذكر النشور والمعاد ... » وذكر في مقام آخر عن لسان بعض المحدّثين : « كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد ، وان الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم انه بنى العالم هذه البنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله» وكان يزعم ان الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل ان تفنى الأعيان جميعاً ، وكان يذهب الى ان المعارف واقعة

بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعاً ، وكان يقول بالوعيد ، وبتحريم المكاسب ، ويتشيّع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة ، لا يتنقّص أحداً ، ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان ، وكان مجبراً . »

وجرى بينه وبين أبي شعيب الحوار الآتي . قال له أبو شعيب :

– القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق ؟

– أسألتني عن الله أم عن غير الله ؟

– عن غير الله !

فاعتصم أبو العتاهية بالصمت، وأعاد عليه أبو شعيب السؤال، وهو يجيبه الجواب نفسه، حتى اذا تكرر الموقف مراراً عديدة، صاح ابو شعيب :

– مالك لا تجيبني ؟

وكان رد أبي العتاهية :

– قد أجبتك ، ولكنك حمار !

وقال هارون الرشيد يوماً لأبي العتاهية : « الناس يزعمون انك زنديق » ، فأجابه : « يا سيدي كيف اكون زنديقاً وأنا القائل :

أيا عجبي كيف يعصى الإلهُ أم كيف يجحده جاحد ؟!
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد ! »

وكانت تهمة الزندقة تنصبّ عليه – حسب الظاهر – لأنه

كان يكثر من ذكر الموت ، والعقاب على السلوك الفاسد بالموت ، دون ان يعرض للمعاد والبعث ، أو يتحدث في شيء عن الثواب الذي ينتظر المؤمن ، وتلك هي الحجة التي استند اليها منصور بن عمّار يوم أشهد جلساءه على ان أبا العتاهية زنديق ، ولكن هـــد: دحض من بعد تلك الحجة اكثر من مرة ، فكتب الى منصور يعاتبه :

إن يوم الحساب يومٌ عسير ليس للظـالمين فيه نصير
فاتخذ عدة لمطلّع القبر وهول الصراط يا منصور !

مما حمل منصور بن عمار على التراجيع، والقول: « أشهدكم ان أبا العتاهية قد اعترف بالموت والبعث ، ومن اعترف بذلك فقد برىء مما قذف به ... »

بيد ان الاشعار التي يدفع بها عن نفسه تهمة الزندقة، أصبحت في أيامه الاخـــيرة خاصة ، اكثر من ان تحصى ، وديوانه يعج عجيجاً بالأقوال التي تجعله بريئاً ، مثل قوله :

فلو كان هول الموت لا شيء بعــده
لهان علينــا الأمر ، واحتقر الأمر
ولكنــــه حشر ونشر وجنّــةٌ
ونار ، ومــا قد يستطيل به الخبر

وقوله :

اني لأعمر داراً ما لساكنهـــا أهلٌ ولا ولد يبقى ولا جار
فبئست الدار للعــاصي لخالقه وهي لمن يتقيه نعمت الدار

وقوله :

ألم تر أن دبيب الليـالي يسارق نفسك ساعاتهـا
وهذي القيامة قد أشرقت على العـالمين لميقاتهـا
وقد أقبلت بموازينهـا وأهوالِها ثمّ روعاتهـا

على ان المهم في تلك التهمة التي وجهت اليه ، وشاعت عنه في بداية امره ، ليس إثباتها أو نفيها من خلال اقواله وأشعاره وانما المهم فيهـا « السبب الاولي » من خلال اعماله ، والداعي الاساسي الى انتشارها وشيوعها ، فقد افضى التحليل الذي قام به الدكتور شوقي ضيف الى أنه كان يؤمن بضرب من «الثنوية»[1]، ودليله على ذلك ما ورد في أرجوزته الشهيرة :

ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخـير والشر بهـا أزواج لذا نتـاجٌ ، ولذا نتـاج
لكل إنسان طبيعتان خيرٌ وشر وهما ضدان ...

وهذه « الثنوية » رشحت اليه من الفرس ، أتبـاع ماني ، وكانت هذه العقيدة قد لقيت أرضاً خصبة في مطلع العهـد العباسي ، وعمل الشعوبيون على نشرها ، وهي القائلة بالهـين : واحـد للنور والآخر للظلمة . أما الأعمـال التي كانت تدعو الى الشك في صحة إيمانه ، فأبرزها حادثتان : الأولى أنه لبس مرة ثياب راهب وادّعى انه رغب في الاسـلام على يدي امرأة – وكانت هذه المرأة عتبة نفسها – وقد انتحل صفة الرهبانية

---

١ – أنظر « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » (دار المعارف ، القاهرة) الطبعة الرابعة ، ١٩٦٠ ص : ١٦٨ .

ليحظى بمشاهدة عتبة، ويقبّل يدها ، وكان له ما أراد، والثانية أنه « لبس كساء صوف ودُرّاعة صوف وآلى على نفسه ان لا يقول شعراً في الغزل »، وكان ذلك بعد يأسه من عتبة ، وانقطع عن الناس ، واشتد بهم سوء ظنه لدرجة انه نصح من سأله كلمة يكتبها على خاتمه ، ان يكتب : « لعنة الله على الناس » ، فاذا أضفت الى هذه التصرفات نشوء عداوات بينه وبين عدد من الشعراء والكبراء ، أمثال سلم الخاسر وأبي قابوس ووالبة بن الحباب من الأولين ، وعبد الله بن معن بن زائدة في الآخرين ، وان الزندقة كانت « سلاحاً » في أيدي المتخاصمين يشهرونه على بعضهم البعض في حياة ذلك المجتمع ، أدركت الثغرة التي طعن منها ابو العتاهية ، وعرفت كيف شاعت عنه تلك التهمة ...

وهناك ، الى ذلك كله ، حادثة تتصل بالسلطان نفسه ، فقد نظم أبو العتاهية قصيدة توجه بها الى الخليفة يبين له فيها ، على نحو خفي ، سوء الحالة الاقتصادية ، واستياء الناس ، ويدعوه فيها الى ملاقاة هذه الأحوال ، والقضاء على أسبابها :

من مبلغٌ عنّي الإمام نصائحاً متواليه
إني أرى الأسعار ، أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة غاشيه
وأرى غموم الدهر رائحة تمرّ وغاديه
وأرى اليتامى والأرامل في البيوت الخاليه
من بين راجٍ لم يزل يسمو إليك وراجيه
يشكون مجهدة باصواتٍ ضعافٍ عاليه

يرجون رفدك كي يروا   مما لقوه ، العافيه

الى ان يقول :

من يرتجى لدفاع كرب ملمة هي ماهيه ؟

من للبطون الجائعات وللجسوم العاريه ؟

» » » » »

ألقيت أخباراً اليك من الرعية شافيه !

لم يكن مثل هذا « التقرير » الذي رفعه أبو العتاهية الى الخليفة – ولا ندري أي خليفة ! – مما يجعل السلطة مطمئنة ، أو يحملها على إيلائه عين الرضا ، لا سيما انه بدأه بالتهديد ، وذكر الفناء والدمار :

أين القرون الماضية   تركوا المنازل خاليه ؟

فاستبدلت بهم ديارهم الرياح الهاويه

وتشتتت عنها الجموع وفارقتها الغاشيه

فاذا محلّ للوحوش وللكلاب العاويه

درجوا فما أبقت صروف الدهر منهم باقيه !

والمعروف ان هارون الرشيد حبس أبا العتاهية – كما يذكر الرواة – لأنه امتنع عن قول الشعر في الغزل ، ولا ادري ان كان مثل هذا التعليل قابلاً للتصديق ، فالرشيد ابعد نظراً ، وأقرب الى العقل والحكمة سبباً ، فلا يصح ان يزج برجل مثل ابي العتاهية في السجن لأنه طلّق الغزل ، إلا أن يكون هذا الموقف من ابي العتاهية ذريعة تذرّع بها الرشيد في الظاهر لحبسه ، وباطن الأمر انه كان ساخطاً عليه لسبب آخر ، يتصل بآراء

أبي العتاهية السياسية وأفكاره العامة حول شؤون الرعيّة . ولا نستبعد ان تكون هذه القصيدة قد وجّهت الى الرشيد ، وبعد نكبة البرامكة ، وكانت هذه النكبة قد أحدثت في المجتمع آنذاك هزة قوية ، مادت لها الأعصاب ، وهلعت القلوب ، وأيقظت الناس على البلاء الذي يرسب في أغوار النعيم ، ثم لا نستبعد ان يكون الرشيد نفسه قد ذكر لأبي العتاهية أن الناس يرمونه بالزندقة ، من قبيل التهديد المبطن للشاعر ، لا اكثر !

وخلاصة القول ان اتهام أبي العتاهية في عقيدته الدينيه يحمل طابعاً سياسياً ، اكثر مما هو تعبير عن حقيقة ، او هو اشارة الى ارتياب في الشاعر من جهة ولائه للسلطة التي كانت قائمة ، لا في صحة ايمانه او عدمه .. وذلك هو شأنه يوم حبسه المهدي قبل الرشيد .

اصدقاؤه وعلاقاته

عمّر أبو العتاهية طويلاً ، واتصل بعدد عديد من وجوه المجتمع في الكوفة والحيرة وبغداد ، ولكن صلته بالادباء والشعراء ظلت اوثق مما هي مع غيرهم من الذين مدحهم ، ونال هباتهم ، واتصل من الخلفاء بالمهدي ، والهادي ، والرشيد ، والأمين والمأمون ، وكان قد جمع حوله رهطاً من الاصدقاء أغدقوا عليه الثناء وادوا له أحسن الخدمات واشهر هؤلاء الاصدقاء : ابراهيم الموصلي المغني ، وسلم الخاسر الشاعر ، يزيد

بن منصور خال المهدي ، على بن يقطين ، سعيد بن وهب الشاعر مخارق المغني، علي بن ثابت ، مسلم بن الوليد ، مجاشع بن مسعدة ، صالح الشهرزوري ، بشار وأبو نواس ، وعمرو بن العلاء .

وكان في صداقاته لطيف المعشر، قريباً من القلب ، يأنس به اصدقاؤه ، ويجدون لديه المتع الشائق من المطارحات والأحاديث ، ان في قضايا النقد والشعر ، وان في شؤون الحياة اليومية .

والعجيب في امره انه لم يشأ ان يستغل صيته الادبي ، وصلاته بالناس لجر مغنم شخصي ، رغم تكسبه بالشعر ، ورغم اشتهاره بالحرص والبخل ، فقد كان له بنتان « اسم احداهما (لِله) والاخرى « بالله) ، فخطب منصور بن المهدي (لله) فلم يزوجه ، وقال : انما طلبها لأنها بنت ابي العتاهية ، وكأني به قد ملكها فلم يكن لي الى الانتصاف منه سبيل ! وما كنت لأزوجها الا بائع خزف وجرار ، ولكني اختار لها موسراً !»

هذه روح واقعية ، ومنطق ، وبصر بالأمور لا يمكن ان نجدها الا لدي موهوب من طراز رفيع .انها تعني تكذيباً لكل ما رمى به ذلك الرجل من تخنث وضعة وتمته . وذلك هو شأنه في الاعم الاغلب من علاقاته ، تراه يقدر كفاءات غيره ، ويعتذر اذ يخطيء ، ويدفع بالتي هي احسن في المآزق الاجتماعية الحرجة ، حتى نزل من بعض النفوس في اواخر حياته ، منزلة كلها عطف وحب وتقدير ..

يكاد يكون هنالك شبه اجماع على ان إنتاج ابي العتاهية الشعري، بلغ من الوفرة درجة لم يبلغها غيره من المتقدمين عليه في الزمن، ولا من معاصريه ، وقد اوضح ابن الخطيب في « تاريخ بغداد » هذا الجانب قائلا : « .. وهو أحد من سار قوله ،وانتشر شعره وشاع ذكره ، ويقال ان أحداً لم يجتمع له ديوانه لعظمه » . [1] وابو الفرج يقرر في « الاغاني » انه كان يقال : « اطبع الناس : بشار ، والسيد (الحميري) ، وابو العتاهية ، وما قد احد على جمع شعر هؤلاء لكثرته ... » [2] ، وروى عنه انه قال : « لو شئت ان اجعل كلامي كله شعراً لفعلت » [3] ، وفي رواية ثانية انه قال عندما سئل عن طريقته في نظم الشعر : « ما اردته قط الا مثل لي ، فاقول ما اريد ، واترك ما لا أريد . » [4]

كان اذن غزير الانتاج . ولكن ما بقي من اثاره لا يعدو ان يكون نتفاً مما وعته ذاكرات الافراد ، ولا سيما في الوصف والغزل والمديح والرثاء ، واستطاع النساك والاتقياء والزهاد وبعض المتصوفة ، ان يصونوا قسماً كبيراً مما قاله في الزهد والامثال ، من الضياع ، فكان لنا ديوانه « الانوار الزاهية في اشعار ابي العتاهيه » الذي جمعه احد الآباء اليسوعيين وكله في

---

١ – « تاريخ بغداد » لابن الخطيب ، مج : ٦ (القاهرة – بغداد ، ١٩٣١) ص ٢٥٠

٢ و٣ و٤ – « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني: اخبار ابي العتاهية .

الزهد ، وذم الدنيا ، والتحدث عن الموت [1] وبعض المواعظ والحكم الاخلاقية. ولا جدال ان هذا الديوان لا يوازي عشر معشار ما نظم أبو العتاهة ، فهناك « ارجوزته المزدوجة » التي سماها « ذات الامثال » وكان يقال : « ان فيها اربعة آلاف مثل » . وهذه الارجوزة وحدها تضعه ، بحسب ما بقي لدينا منها ، في مصاف المتنبي والمعري ، وكان الجاحظ قد ابدى اعجابه بها عندما سمع هذا البيت منها :

يا للشباب المرح التصابي   روائح الجنة في الشباب

وقال للمنشد : « قف ! انظروا الى قوله . روائح الجنة في الشباب ، فان له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله اسرع من اللسان الى وصفه » .

على ان الشهادات التي وردت في حقه من معاصريه خاصة ، ومتذوّقي الأدب ، ونقاد الشعر من بعده ، كثيرة تكاد لا تحصى .

هذا سَلم الخاسِر يجيب ذاك الذي سأله عن أشعر الناس

---

١ — طبع في بيروت عام ١٨٨٦ «الانوار الزاهية في ديوان ابي العتاهية» وكتب عليه : « جمعه احد الاباء اليسوعيين ، نقلا عن رواية النمري وكتب مشاهير الادباء ، كالاصفهاني والمبرد ، وابن عبد ربه والمسعودي والماوردي والغزالي وغيرهم » . وكان الامام يوسف بن عبد البر القرطبي قد جمع زهديات ابي العتاهية في ديوان خاص .

بقوله : « أشعر الجن والانس الذي يقول :

سكن يبقى له سكن ما بهذا يؤذن الزمن!»

والبيت لأبي العتاهية .

وهذا جعفر بن يحيى يقول : « أزعم ان ابا العتاهية أشعر أهل هذا العصر » .

وهذا ابن الاعرابي يقول : « ... والله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا اقدر على بيت منه ، وما احسب مذهبه إلا ضرباً من السحر » .

وهذا ابن مناذر يرى في ابي العتاهية « هذا الخبيث الذي يتناول شعره من كمّه » اشعر اهل الاسلام من المحدثين .

وهذا بشار يجيب السريّ بن الصباح وقد سأله : « من اشعر اهل زماننا » بقوله : « مخنّث اهل بغداد) وهو يعني ابا العتاهية .

وأبو نواس يرد على من قال له : « انت اشعر منه » بقوله : « والله ما رأيته قط إلا ظننت انه سماء ، وأنا أرض ! »

وقدّم ابو تمام شهادة معلّلة اذ قال : « لأبي العتاهية خمسة ابياتٍ ما شركه فيها احد ، ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر ، وهي قوله :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

وقوله :

ألم تر أن الفقر ُيرجى له الغنى وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر

وقوله :

ولما استقلّوا بأثقالهم وقد ازمعوا للذي ازمعوا
قرنت التفاتي بآثارهم وأتبعتهم مقـلة تدمع

وقوله :

هب الدنيا تصير اليك عفواً أليس مصير ذاك الى زوال

هذه الشهادات ، على ما في بعضها من مبالغة ، وعلى ما يشوبها من انفعال وتأثر آنيّين، تشير الى حقيقة لا يأتيها الباطل من جهة ، وهي ان ابا العتاهية لقي ما يستحق من تقدير ، وقد نال من الجوائز والهبات والتكريم لدى الخلفاء ورجالات العصر ما لم يحظ به زملاؤه رغم كل ما اصابه من حبس ، وجلْد ، وهوان ، على يد المهدي ، والهادي ، والرشيد ، واستطاع ان يجمع ثروة كبيرة ...

ولكن عتبة - غرامه الاعظم - عاشت دهرها، وهي ترفض يده ، ولا ترى فيه غير بائع جرار ، ومتكسب بالشعر !

وفاته

كان ابو العتاهية قد بذل آخر محاولة لاقناع عتبة بقبول يده، حين ذهب هارون الرشيد بنفسه الى منزلها يخطبها له ، ولكنها رفضت وأصرّت على الرفض .

عند ذاك تسرّب اليأس الى قلب ابي العتاهية ، لا من عتبة وحدها ، بل من الدنيا والناس والحياة والعالم والوجود بأسره ، فدعا بمخارق المغنيّ ، وطلب اليه ان يهبه يوماً يتفرغ به اليه ، وضرب له موعداً ، حتى اذا حان وجاءه مخارق « أدخله بيتاً

له نظيفاً فيه فرش نظيف، ثم دعا بمائدة، وأكلا وشربا وسكرا، وحين دارت الخمرة برأس ابي العتاهية ، طلب الى مخارق ان يغنيه في قوله :

أحمدٌ قال لي ولم يدر ما بي   أتحبّ الغداة عتبة حقًا

ثم شرب قدحاً ، وطلب ان يغنيه في قوله :

ليست لمن ليست له حيلة   موجودة خيرٌ من الصبر

ثم شرب قدحاً آخر ، وغناه مخارق في قوله :

خليليّ مـــالي لا تزال مضرتي
تكون مع الأقدار ، حتماً من الحتم

وأقام على ذلك النهـــار كله ، حتى اذا اقبل الليل ، قال لصديقه المغني : « السلام عليك يا حبي وفرحي من النـــاس كلهم ، سلام الفراق الذي لا لقاء بعده ! » . وانقطع عن الناس ولبس الصوف ، واعتكف . . .

كان ذلك في اواخر عهد الرشيد - مات الرشيد عام ١٩٣هـ - وعاش ابو العتاهية بعد تلك الحادثة نحواً من عشرين سنة .

وفي سنة ٢١٣ هـ . أصيب بمرض في معدته - لا يبعد ان يكون القرحة - عانى منه آلاماً طويلة ، وكان قد شاخ ولم يبق لديه من موارده الصحية ما يعينه على المقاومة ، حتى اذا أقبل صباح الاثنين لثمان خلون من جمادى الآخرة ، نظر الى من حوله ، وقال : « أشتهي ان يجيء مخارق المغني ، ويغني عند رأسي :

اذا ما انقضت عني من الدهر مدتي
فإن عزاء الباكيات قليل
سيُعرض عن ذكري ، وتُنسى مودّتي
ويحدث بعدي للخليل خليل »

واحس ان الساعة دنت ، فأوصى ان يكتب على قبره هذا البيت من الشعر :

إنّ عيشاً يكون آخره الموت لعيشٌ معجّل التنغيص[1]

وما كاد ينهي وصيته هذه ، حتى اسلم الروح .. وهو يفكر في عتبة وآخر العيش ، معاً !

وحمل اهله جثمانه الى مكان قرب نهر عيسى (فرع من دجلة) قبال قنطرة الزياتين . وكان ان مات في اليوم نفسه ابراهيم الموصلي ، وابو عمرو عبد السلام الشيباني .

ورثاه ابنه محمد ، قال :

يا ابي ضمّك الثرى وطوى الموت اجمعك
ليتني يوم متّ صرت الى حرة معك
رحم الله مصرعك برّر الله مضجعك

---

١ – جاء في رواية ذكرها ابو الفرج في « الأغاني » ان أبا العتاهية أمر ان يكتب على قبره :

أذن حي تسمعي اسمعي ثم عي وعي
أنا رهن بمضجعي فاحذري مثل مصرعي
عشت تسعين حجة أسلمتني لمضجعي
كم ترى الحي ثابتاً في ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقى فخذي منه او دعي

أحداث وتجارب

ما كان لشاعر مثل أبي العتاهية يحب الحياة مثل ذلك الحب ، ان ينصرف عن لهوه ومتعه في إطار تلك الحضارة المتهالكة على اللهو ، الغارقة الى أذنيها في المتع ، إلا ووراء انصرافه أحداث وتجارب اقتسرته اقتساراً على مثل ذلك السلوك . وإذا أنت أنعمت النظر في أشعاره الزهدية ، في حكمه وأمثاله التي طار بها صيته ، وكانت قنطرة الى المكانة التي احتلها في حياة معاصريه اول الأمر ، وتخليد ذكره من بعد ، وعناية المتصوفين والأخلاقيين والحكماء بما صدر عنه – اذا أنت تأملت هاتيك الأشعار ملياً ، وجدتها تعبر عن أشياء محسوسة ، عن قضايا واقعية ، عن أحداث تاريخية ونفسية لا يتجه اليها الخيال عفواً من تلقاء ذاته ، ولا يحتاج المرء الى وصفها او التعرض لها اذا هي لم تصادم النفس وتفرض وجودها وتحمل الذهن على الالتفات اليها والاهتمام بها .

ولقد كان ابو العتاهية في واقع نشأته ، وحقيقة اتجاهه

ومزاجه ، منصرفاً عن كل ما هو تنسّك وزهد وتقيد بإملاءات الشريعة ، وقواعـد النظام الديني السائـد ، والعرف الأخلاقي المتبع ، بل كان أبعد النـاس في جوهر طبيعته الشاعرية ، عن التفكير في الموت ، والتـبرم بالعيش . ولكن الأحداث التي شهدها ، والتجارب التي عاناها هي التي حملته قسراً على ذلك اللون من التفكر ، وحتى من الشعور .

هنا نقع – مع أبي العتاهية – على ظاهرة فذّة ، فريدة ، من ظواهر الحيـاة الأدبيـة ، وهي ان « يرغم » الانسان على الشعور بشيء او باشياء لا طاقة له بمواجهتها ، ولا لديه رغبة في الوقوف عندها ، ولكنها تأخذ بتلابيبه، وتستحوذ على كيانه، وتسد عليه منافذ الهرب منهـا ، فلا يبقى أمامه من سبيل الى الخلاص إلا ان يذعن لما أريد منه ، ويسترسل مع ما ارغم عليه...

وهكذا ، سيق الى المعـاني التي بسطهـا ، والأجواء التي وصفها ، والموضوعات التي طرقها وقلبه عالق بالحب وطلاوته ، واللذة وتهاويلها ، وذهنه يطوف في الحانات ، وسره يصغي الى ما تقوله القيان والمغنون ، وفكره منصب على عتبة وما تراه في امر حبه إياها ، وعلى الطرائق التي يسلكها لنيل رضاها ، والحظوة في عينيها ، حتى لجأ الى الصمت آخر الأمر . واعتزاله الناس ، كزهده ، كتنسكه ، ضربٌ من الصمت . والصمت في مثـل هذه الحالة « تعلـّة » أو « سلوى » عن شعور أُكره عليه :

عجبتُ حتى غمّني السكوت صرتُ كأنّي حائر مبهوتُ !
كذا قضى الله فكيف أصنع ؟
والصمت ، إن ضاق الكلام ، أوسع
الترك للدنيا النجاة منها لم تر أنهى لك منها ، عنها

مشاكل الملك :

عندما يتحدث خطباء تلك العهود - ومثلهم الشعراء والوعاظ والفقهاء والكتاب - عن الدنيا ، ويبالغون في ذمّها ، ويفتنّون في تصوير اذاها وبلائها ، فهم يعنون في الدرجة الاولى حياة الفرد في علاقتها بالشؤون العامة ، اي بسياسة الملك وما يدور فيها من مآس وظلامات ، وتعجّ به من مشاكل ومعضلات تبعث على التفكير ، ويحار في امرها كل مفكر .

وكانت دنيا الشعراء في ايام ابي العتاهية ، في يد الخلفاء في اول منزلة ، ومن يليهم ويتصل بهم من الامراء والولاة والقضاة والوزراء ، في المنزلة الثانية .

أرجع الآن البصر في سيرة الخلفاء الذين عرفهم شاعرنا منذ شبّ عن الطوق الى ان هلك ، تجدهم - وعددهم خمسة : المهدي ، والهادي ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون - جميعاً ، ذاقوا الأمرّين في بلوغ الملك ، والمحافظة على الملك ، والدفاع عن الملك ، وتناهبت قلوبهم الاحقاد والضغائن والرِّيَب ، وغمرت ايامهم الكآبات والمآسي ، وشغلتهم الحروب والفتن ، ولم ينعم احد منهم براحة بال ، ولا صفا لأحد منهم عيش .

وكانت هذه الآلام والفتن والخطوب التي يعانونها ، تنعكس على حياة الناس ، كل الناس ، وتقض مضاجع كل من يتصل بهم او يتصل بوزرائهم ومختلف اعوانهم ، فاذا كان الرجل اثيراً عند امير او وزير او حتى عند خليفة ، لم يأمن ان تتبدل حال من يؤثره ، او يتغير عليه نتيجة وشاية او سعاية ، وإذ امن جانبه ، ووثق من اقباله عليه وإيثاره له ، لم يأمن ان تتجه الحوادث ضد صاحبه ، او ينبو الزمن به وينتقل السلطان منه الى عدوه ، فيكون الحبس او التعذيب او الفقر في احسن الاحتمالات مصيره ، ويكون القتل في بعض الحالات امراً محتوماً لا فكاك منه .

ولقد شهد ابو العتاهية بأم عينه تلك الألوان من الحالات ، ومارس بنفسه الهوان والسجن والاتهامات التي جعلته قاب قوس او أدنى من الاطاحة بعنقه ، بَلهَ ما كان يترامى الى سمعه عن دسائس البلاط ، وتباغض الوزراء ، وتحاسد الجواري ، وتناحر الاحزاب والفرق وابناء الاسر المالكة والطامحين الى الخلافة ، والطامعين بالولاية . . .

ولاية المهدي

كان اول ما سمع أبو العتاهية عن المهدي ، انه تولى السلطة بغير وجه حق ، فأبوه - المنصور - هو الذي حمل عيسى بن موسى ولي العهد الشرعي على خلع نفسه ، وقيل : « بل اشتراها المنصور منه بمال مبلغه أحد عشر ألف درهم . وقيل : بل ارسل خالد بن برمك فأخذ معه جماعة من اهل المنصور نحو ثلاثين رجلاً

ومضى الى عيسى فخاطبه في ان يخلع نفسه فابى . فلما أبى قال خالد للجماعة : نشهد عليه في انه قد خلع نفسه ، ونحقن بذلك دمه ، ونسكن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك ، فقامت البينة به ، وأنكر عيسى فلم يلتفت اليه ، وتمّ خلعه وبويع للمهدي . » [1]

ذلك هو شأن أول خليفة اتصل به ابو العتاهية ، تولى الأمر بعد موت أبيه نتيجة حيلة مفضوحة ، او رشوة بالغة ، وكان الناس يتهامسون حول شرعية ولايته ، ولا يجسر احد في بغداد على معارضته ، لأنه عمد الى التضييق على حرية الفكر ، واخذ المفكرين كلهم بتهمة الزندقة ، ثم استعان على توطيد ملكه بما بذل من اموال ادخرها والده ، وجنوحه الى مراعاة أحكام الشرع في بعض القضايا والشؤون .

ولكن عهده لم يخل مع ذلك من فتن وثورات قامت في كل من الشام ، والجزيرة ، والموصل ، ومصر . فهو وان انفق ١٤ مليوناً من الدنانير و ٦٠٠ مليون من الدراهم [2] ، سوى ما جباه في ايامه ، لم يتمكن من شراء الناقمين ، واسكات الطامعين وعندما هلك ، شاع أن احدى جواريه دست السم في بعض المآكل لجارية اخرى ، فأكل المهدي منه وهو لا يعلم فمات ..

وتعرف ابو العتاهية الى غرامه الأكبر - اي عتبة - في عهد

١ - « تاريخ الاسلام » تاليف الدكتور حسن ابراهيم حسن . ج ٢ (القاهرة ، ١٩٥٣) ص : ٢٧ .

٢- مروج الذهب المسعودي ج ٣ (طبعة بغداد) ص : ٢٣٦

ذلك الخليفة ، وكانت عتبة جارية زوجة الخيزران أم الرشيد ، لقيها ابو العتاهية في الطريق فوقعت من قلبه احسن واعلى واثبت موقع ، وراح يحتال شتى الحيل لملاقاتها والاجتماع بها او رؤيتها ولو على حساب كرامته ، وهوان نفسه ، مما اطمع فيه تلك الجارية ، وجعلها تتعالى عن حبه ، وتستخف به ، وترفض مع الزمن ان تستجيب لعاطفته او تلبي نداء قلبه. وراح من جانبه ، ازاء هذا الاستخفاف والرفض ، يوغل في غيابة الاسى والكآبة ، ويتسلى عما احدق بكيانه من بلاء ، في نظم الاشعار الغزلية ، والتشبيب بعتبة ، حتى اصبح اسمها على كل شفة ولسان .

وكانت عتبة « محمية » البلاط ، فهي جارية الخيزران ، والخيزران امبراطورة ولدت الهادي والرشيد ، ولها من النفوذ ما لا يتمتع به أحد حتى الخليفة نفسه .

وجاءت عتبة ، حين كثر تشبيب ابي العتاهية بها ، وشاع في الناس ذكرها ، و « شكت الى مولاتها ما يلحقها من الشناعة . ودخل المهدي وهي تبكي بين يدي الخيزران ، فسألها عن خبرها فاخبرته ، فامر بأحضار ابي العتاهية ، فادخل اليه . فلما وقف بين يديه ، قال : أنت القائل في عتبة .

الله بيني وبين مولاتي ابدت لي الصد والملالات

ومتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك ؟

« قال : يا امير المؤمنين ! انا الذي اقول :

يا ناق حثي بنا ولا تُهني نفسك فيما ترين راحات

حتى تجيئي بنا الى ملك توّجه الله بالمهابات

يقول للريح كلما عصفت هل لك يا ريح في مباراتي ؟!
عليه تاجان فوق مفرقه تاج جمال ، وتاج اخبات

« فنكس المهدي رأسه ، ونكت بالقضيب ، ثم رفع رأسه فقال : انت القائل :

الا ما لسيدتي ما لها ادلت بأجمل ادلالها
وجارية من جواري الملوك قد اسكن الحسن سربالها

« ثم سألها عن اشياء ، فافحم ابو العتاهية ، فامر المهدي بجلده نحواً من حد ، واخرج مجلوداً ، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال ، فقال لها :

بخ بخ ! يا عتب من مثلكم قد قتل المهدي فبكم قتيلا

« فتغرغرت عيناها ، وفاض دمعها . وصادفت المهدي عند الخيزران فقال : ما لعتبة تبكي ؟ قالوا له : رأت ابا العتاهية مجلوداً ، وقال لها : « بخ ، بخ ... » فأمر له بخمسين الف درهم ، ففرقها ابو العتاهية على من بالباب ، فوجه اليه المهدي يسأله : ما حملك على ان اكرمتك بكرامة فقسمتها ؟ فقال : ما كنت لآكل ثمن من احببت ، فوجه اليه بخمسين الفاً اخرى ، وحلف عليه ان لا يفرقها[١] ... »

ولقد كان في موقف عتبة الثاني — وهي التي اخذتها فيه الرأفة به او الشفقة عليه ، لا الحب ! — ما شجعه على إعادة الكرة ، والتقرب اليها عن طريق المهدي نفسه هذه المرة ،

---

١ — المصدر المذكور ، ص : ٢٣٩ .

فكان ان اهدى اليه في يوم نوروز - عيد الربيع - برنية صينية فيها ثوب معطر بالمسك ، فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية :

نفسي بشيء من الدنيا معلّقة الله والقائم المهدي يكفيها
إني لأيأس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهمّ ان يدفع اليه عتبة . ولكن هذه اذا كانت قد اشفقت عليه يوم رأته مجلوداً بسببها ، فذلك لا يعني انها رضيت به سيداً او حبيباً ، فقالت للخليفة :

- يا امير المؤمنين ! مع حرمتي وخدمتي تدفعني الى بائع جرار يكتسب بالشعر !

وعند ذاك بعث اليه المهدي : « اما عتبة فلا سبيل لك اليها ، وقد امرنا لك بملء البرنية مالاً ! »

هنا ، سرى الاضطراب الى حياة ابي العتاهية ، ولكنه لم يقنط بعدُ من حب عتبة ، ولو انه قنط لاستراح ، غير ان امله - وهو محض وهم - هو الذي نقل الاضطراب من حياته الى تفكيره ، فأمعن يخبط في سيرته العامة خبط عشواء ، ولا يعرف كيف يسير ، والى اين يتجه ، وماذا يعمل بحياته :

بليت وكان المزح بدء بليّتي
فأحببت حقّاً والبلاء له بَدْوُ
وعلّقت من يزهو عليّ تجبراً
وإني في كل الخصال له كُفو
رأيت الهوى جمر الغضى غير انه
على كل حالٍ ، عند صاحبه حلو

واراد ان يخدع عتبة فجاءها مرة - وقد علم انها ذاهبة في شراء رقيق للعتق - في زي متنسك ، فقال :

- جعلني الله فداك !! شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة ، فإن رأيت اعزكِ الله شرائي وعتقي ، فعلتِ مأجورة ؟!

فالتفتت الى مرافقها عبد الله بن مالك الخزاعي وقالت له :

- اني لأرى هيئة جميلة ، وضعفاً ظاهراً ، ولساناً فصيحاً ، ورجلاً بليغاً فاشتره واعتقه .

- نعم !

وقال الشيخ المتنسك :

- أتأذنين لي اصلحك الله في تقبيل يدك ؟

ومدت يدها فقبلها وانصرف .

وهنا ضحك عبد الله بن مالك ، وقال :

- اتدرين من هذا ؟

- لا !

- هذا ابو العتاهية ، وانما احتال عليكِ حتى قبّل يدك !

كانت مثل هذه التصرفات تضعف من احترامه ، او تذهب به كلياً في عيني عتبة ، ولكنها كانت تقرّبه من الخليفة المهدي ، وتجعل هذا يرى فيه اداة تسلية وتفكهة حتى انه طلب اليه مرة ان يهجوه ، ومرة ان يرافقه في رحلة صيد ، ومرة استجاب اليه في إطلاق سراح سجين ، ومع ذلك زج به مرة في السجن يوم بلغه انه متهم بالزندقة .

ولي الهادي العهد ، وعمره ١٦ سنة ، وجعل ابوه الولاية من بعده لأخيه هارون الرشيد ، ولكنه كان يضمر السوء لهارون ، فلما تسلم السلطة اراد ان يعيد سيرة جده المنصور في القضاء على ولي العهد الشرعي ، وينصب ابنه مكانه . غير ان يحيى بن خالد البرمكي نصح الهادي ان لا يخلع اخاه ، وان يبايع لابنه جعفر من بعده . ولم يترك مشيرو الخليفة الأمر على هذه النصيحة ، ولا وقفت مكايدهم ودسائسهم عند حدها ، وانما راحوا يحرضونه على الرشيد حتى جدّ فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه ، فأشار يحيى على الرشيد ان يستأذنه في الخروج الى الصيد فأذن له الهادي ، فلما غاب اكثر مما استأذن جعل يكتب اليه ويصرفه ، فتملل الرشيد ، وأظهر الهادي شتمه وبسطَ واليه وقوّاده ألسنتهم فيه . »

وأوشكت ان تنشب بين الأخوين – الهادي والرشيد – المعركة التي نشبت من بعد بين الأمين والمأمون لولا ان تداركت الموقف الخيزران ، في اكبر احتمال ، وعملت على قتله !...

وتفصيل الخبر ان الهادي مات بعد سنة وشهرين من تسلمه العرش » واختلف في سبب موته فقيل : انه دفع نديماً له من جُرْف [1] على أصول قصب قد قطع ، فتعلق النديم به فوقع ،

١ – الجرف : ما أكلته السيول من الأرض ، ومن أسفل شق الوادي فأشرف أعلاه ، أو هو عرض الجبل الأملس . انظر (لسان العرب) مادة : (جرف) .

فدخلت قصبة في منخره ، فماتا جميعاً . وقيل : اصابته قرحة في جوفه . وقيل : سمّته امه الخيزران لما عزم على قتل الرشيد ليعهد الى ولده . وكانت امه حاكمة مستبدة بالأمور الكبار . وكانت المواكب تغدو الى بابها . فزجرهم عن ذلك . وكلمها بكلام وقح . وقال : لئن وقف ببابك اميرٌ لأضربن عنقه ! أما لك مغزل يشغلك . او مصحف يذكرك . او سبحة ؟! فقامت ما تعقل من الغضب . فقيل انه بعث اليها بطعام مسموم. فأطعمت منه كلباً فانتثر . فعملت على قتله لما وعك . بأن غمّوا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه[1] . . . »

ولا يبعد ان تكون هذه الرواية الاخيرة هي الصحيحة ، لأنها تنسجم مع الموقف الذي اتخذه الهادي من اخيه الرشيد فور تسلمه الحكم،بنسبة ما تنسجم مع الغلظة والجبروت والشدة التي عرفت في طباع الهادي ، وتفسّر لنا السرعة التي انتهى بها امره وهو ما يزال في ميعة الصبا ، وكان قد سار سيرة ابيه في تعقب الزنادقة والتضييق عليهم والغلوّ في اخذهم بالشبهة ، وكل ما يرمي اليه من وراء هذا الستار ، ستار الدفاع عن حرمات الدين ، ان يقضي على خصومه السياسيين ولا سيما اولئك الذين يعرف ميلهم الى اخيه الرشيد ، وتفضيلهم اياه عليه . وكان قد قال – فيما يروي الطبري – في بيان خطته : « لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا اترك منها عيناً تطرف ! »

١ – (تاريخ الخلفاء) للسيوطي (القاهرة ، ١٩٥٢) ص : ٢٨٠ .

أما سر تلك البغضاء المستترة التي كان يكنها الهادي لأخيه الرشيد ، فهو ان المهدي كان قد ولاّه عهده ، وجعلها لهارون من بعده ، كما رأيت من قبل ، ولكن المهدي فكر بتقديم الرشيد ، في أواخر ايامه ، وكانت الخيزران تميل الى تقديمه ، غير ان الموت حال دون المهدي وهذه الخطة ، فلما ولي الهادي الأمر ترقب ان يتردد الرشيد في مبايعته ، فيتخذ ذلك ذريعة الى التخلص منه ، ولكن الرشيد كان أول من نادى بالولاء ، فانتقلت المعركة حينئذٍ الى صعيد الولاية ، ولاية العهد ، وراح الهادي يتعقب كل من يوالي الرشيد .

وكان ابو العتاهية من أصحاب الرشيد والمخلصين له و « كان الهادي واجداً على ابي العتاهية لملازمته أخاه هارون في خلافة المهدي ، فلما ولي موسى الخلافة ، قال ابو العتاهية يمدحه :

يضطرب الخوف والرجاء اذا حرّك موسى القضيب او فكر
ما أبين الفضل في مغيبٍ وما أورد من رأيه وما اصدر
فكم ترى عزّ عند ذلك من معشر قومٍ وذل من معشر
يثمر من مسّه القضيب ولو يمسه غيره لما أثمر
من مثلُ موسى ، ومثل والده المهدي ، او جدّه ابي جعفر

فرضي الهادي عنه [1] . »

وكان هذا الرضا سبباً في نظم تلك القصيدة الرائية التي يصور بها ابو العتاهية ، او يتخيل ماضيه ، يوم كان ماجناً يلهو

---

١ — (الأغاني) : أخبار أبي العتاهية .

في الكوفة بين خمورها وجواريها [1] . ثم كانت تلك القصيدة سبباً في إجزال العطاء عليه ، وهو الذي يقول في آخرها :

والى امين الله مهربنا من الدهر العثورِ
وإليه أتعبنا المطايا بالرواح وبالبكور
صُعْرَ الخدود كأنما جنحن أجنحة النسور
متسربلات بالظلام على السهولة والوعور
حتى وصلن بنا الى رب المدائن والقصور
ما زال قبل فطامه في سنّ مكتهلٍ كبير

والبيت الأخير إشارةٌ الى صِغَر سن الهادي ، والقصيدة كلها تعبق برائحة الشباب ، ولكن الواضح من مجمل علاقة ابي العتاهية بالهادي انه كان يخشاه ، حتى اذا رضي عنه ، طمع فيه ، ولكن ولاءه الحقيقي ، او طمعه الأكبر كان في هارون الرشيد ، وما كان اتصاله بالهادي ومدحه إياه إلا من قبيل المراعاة لمركزه والمسايرة للناس ...

مع الرشيد

بويع هارون الرشيد يوم الجمعة صبيحة الليلة التي مات فيها الهادي عام ١٧٠ هـ . وكان في الواحدة والعشرين من سنيه ، بينما كان ابو العتاهية في الأربعين .

وكان الرشيد مديناً في منصبه لرجل وامرأة : الرجل هو

---

١ - انظر في آخر هذا الكتاب (مختارات من أدب أبي العتاهية) .

يحيى بن خالد ، والمرأة هي الخيزران والدته ، « ولما أفضت الخلافة الى الرشيد دعا بيحيى بن خالد ، فقال له : يا أبتِ ! انت أجلستني في هذا المجلس ببركتك وبمنّك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر . ودفع اليه بخاتمه [1] . » وبعد ثلاث سنوات من تولي الرشيد السلطة ماتت والدته الخيزران . وعاش من بعدها وسط ظروف صعبة ، وأحداث جسام ، وكلها تتصل بملكه ، واحتياطه لهذا الملك ، وصيانته ، والابقاء عليه في ذرّيته ، من بعده ...

غير ان هذه الظروف الصعبة نفسها أيقظته على ألوان في السياسة ، وأساليب من رياضة النفس ، وطرائق في الحكم ، قل ان توفرت لغيره من الخلفاء ، ويبدو انه كان على جانب من الدهاء عظيم ، وأبرز ما في دهائه قدرته على كتمان انفعالاته وتأثيراته ، وصحة تصميمه ، وحزمه عند التنفيذ ، وحسن اختياره لأعوانه .

قال الجاحظ : « اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكة ، وقاضيه ابو يوسف رحمه الله ، وشاعره مروان بن ابي حفصة ، ونديمه العباس بن محمد عم ابيه ، وحاجبه الفضل بن الربيع ، أنبه الناس وأعظمهم ، ومغنيه ابراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة [2] . »

---

١ – المسعودي « مروج الذهب » ج ٣ . ص : ٢٥٧
٢ – السيوطي « تاريخ الخلفاء » ص : ٢٨٦

وقد نجمت تلك الصعوبة في ظروفه عن الأوضاع الداخلية في الامبراطورية ، والعلاقات الخارجية ، في آنٍ واحد :

لم يخلص العباسيون جملة في الداخل من معارضة بعض الفئات الناقمة ، وعلى رأسها فئة الطالبيين وأنصارهم من الطامحين الى الخلافة ، ويليهم الخوارج الذين ما انفكوا عن مقاومة السلطة منذ ايام علي ومعاوية .

« وكان اول الخارجين عليه يحى بن عبد الملك بن الحسن بن علي ، وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادي ، ذهب الى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بها وقوي امره ، ونزع اليه الناس من الامصار والكور ، فاغتمّ الرشيد لذلك ، وترك شرب النبيذ ، ثم ندب الى قتاله الفضل بن يحى بن خالد في خمسين الفاً ومعه صناديد القواد ... »[1] ولكن الفضل أنهى الأمر صلحاً.

وخرج على سلطة الرشيد أيضاً أخو يحى الآنف الذكر واسمه ادريس ، وكان منه أن سار بعد وقعة فخ الى مصر ، فالمغرب الاقصى ، حيث التف حوله البربر هناك ، واسس دولة الأدارسة وانفصل المغرب على يد تلك الدولة ، عن الخلافة العباسية ، بعد انفصال الاندلس .

هاتان الحادثتان جعلتا الرشيد يسيء الظن بالطالبيين — وكان قد حاول استمالتهم في بادىء أمره — ويرتاب في كل من

١ – (تاريخ الأمم الإسلامية) – الدولة العباسية ، للشيخ محمد الخضري (طبعة ١٩٥٩) ص : ١٠٣ .

يتصل بهم ، ويعاقب كل من يواليهم .

وثار بعد يحيى وادريس الطالبيين ، زعيم خارجي هو الوليد بن طريف الشيباني، وكان يقيم في جزيرة الشام بنواحي نصيبين. قتل ابراهيم بن خازم ، عامل الرشيد ، وانتقل الى ارمينيا ثم عاد الى الجزيرة ، واشتدت بها شوكته وكثر اتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة ، فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ، ورأى ان يوجه اليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه ، فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني، وهو ابن اخي معن بن زائدة، فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعاً في ذلك طريقة المهلّب بن أبي صفرة مع قطري بن الفجاءة ، وكانت البرامكة منحرفين على يزيد ، فقالوا له : انه يراعيه لأجل الرحم ، والا فشوكة الوليد يسيرة ، فوجه اليه الرشيد كتاب مغضب وقال: ولو وجهت احداً من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به . ولكنك مداهن متعصب . وامير المؤمنين يقسم بالله لئن أخّرت مناجزة الوليد ليبعثن اليك من يحمل رأسك الى امير المؤمنين » [1] ولكن يزيد وفق في معركة معروفة الى قتل ابن طريف ووجه برأسه الى الرشيد .

ثم اخذ الولاة في المشرق ينسجون على منوال المتمردين في الأندلس والمغرب ، ويحاولون الاستئثار بالسلطة ، والانفصال عن بغداد ، ولكن يقظة الرشيد وحزمه اوقفا هذا التيار ، وكان رافع بن ليث بن نصر بن سيار أول الثائرين على السلطة المركزية ، وهو عاملها على سمرقند ، فوجه الرشيد اليه هرثمة بن

١ - المصدر المذكور ، ص : ١٠٥ .

أعين على رأس جيش كبير ، وخلع عامله على خراسان الذي لم يحسن الادارة ، وكان فيها يومذاك علي بن عيسي بن هامـــان ، ونجح هرثمة في كف يد ابن ماهان ، ومصادرة املاكه ، ولكنه أخفق في القضاء على رافع الذي ظل في نجوة من العقاب، واقام على عبثِهِ وتمرده ..

ثم ساورت الرشيد الشكوك في شأن وزرائه من بني برمك وكانوا قد بلغوا من عظم النفوذ في الدولة ، وبسطة الجاه ، وعلو الكلمة ، وموالاة الناس لهم ، ما جعل الرشيد نفسه في المرتبة الثانية بجانبهم ، أو جعل دوره ثانوياً بالنسبة للدور الفعلي الذي يقومون به في الحياة العامة ، وادارة البلاد . وكانوا قد وفقوا الى نيل تلك المكانة ، لما اظهروا في بادىء أمر الدولة العباسية من اخلاص وتضحية ، وما بذلوا من جهود ، واثبتوا من كفاءة في خدمتها ، وما كاد الرشيد يتولى الأمر ، وقد علمت مـا كان ليحيى بن خالد البرمكي من فضل عليه ، حتى اطلق يده وأيدي بنيه : الفضل ، وجعفر ، وموسى ، ومحمد ، في الدولة يولون من يشاؤون ، ويعزلون من لا يرضيهم ، ويتصرفون في الولايات والبلاد تصرف المالك بملكه .

وكان الى جانبهم بطبيعة الحال ، قواد وأعيـــان ورؤساء وولاة من العرب – وهم من الفرس لا ينظرون الى السلطة التي تخولوها بعين الرضا ، بل كان في اولئك القواد والاعيان من شعر بالغيرة ، واحس بالحيف ، وكان يرى في تسلطهم انتقاصاً لقدره ، واهتضاماً لحقه ، فما انفك عن الايقاع بهم ، حتى وفق

الى ما اراد . وكانت نكبة البرامكة على يد الرشيد سنة ١٨٦هـ. وهي النكبة التي افاضت السير والتواريخ في حديثها ، ونظم فيها الشعراء الكثير من القصائد ، وسببها الأساسي ، خوف الرشيد على ملكه من جهة ، وانتشار النزعة الشعوبية في الاوساط العليا الحاكمة من جهة ثانية ، اذ ينبغي ان لا يغرب عن بالنا ان البرامكة كانوا يحابون الفرس ويقربونهم ، ويجافون العرب ، ويبعدونهم عن مناصب الدولة ما امكنهم ان يبعدوهم .

تلك هي اهم الحوادث الداخلية التي حدثت في ايام الرشيد ، اما على الصعيد الخارجي ، فقد كانت حروب الرشيد مع البيزنطيين شغله الشاغل .

ولهذه الحروب قصة تبدأ منذ اجلى العرب الروم عن سورية اذ استمرت عهد الراشدين تخفت آناً وترتفع آناً ، وكذلك استمرت عهد الأمويين الذين حاولوا احتلال القسطنطينية مرة فأخفقوا ، واستغل قسطنطين الخامس الغليان الداخلي في الدولة الأموية ، فانقض في سنة ٧٤٥ م (١٢٥ هـ) على حدودها الشمالية وأستعاد مرعش ودولوك ، واجلى نصارى الحدود الى تراقية ، وفي السنة ٧٤٦ م . جهز اسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية زحر به الى قبرص ، فقضى على اسطول عربي كان في مياهها ، واحتل الجزيرة . وفي السنة ٧٥١ جرد حملة على حدود العرب في ارمينية فاستولى على أرضروم وملاطية . ثم اتجه نحو الفرات فاحتل حصن قلوذية وبلغ

شمشات ... »[1]

كانت هذه الانتصارات التى حققها الروم اثناء الاضطرابات الداخلية في الامبراطورية العربية ،وتنازع الأمويين والعباسيين سبيلا الى تحصن الروم ، وتقوية خطوط دفاعهم ، وبناء القلاع على الحدود في جبال طوروس بسلسلتيها ، حتى اذا استتب الامر للعباسيين « عُني العرب بمثل ما عني بـه الروم ، فأسس هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩) اقليم عواصم ، بالاضافة الى اقليم الثغور ، فشمل اقليم العواصم حلب ومنبج وانطاكية الى الساحل ، وجعل عليه ابنه المعتصم . واقليم العواصم هذا كان سلسلة من الحصون الداخلية تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم ، وكان اقليم الثغور في عهده ينقسم قسمين : الثغور الجزرية لحماية العراق ، ومن حصونها زبطرة ومنصور والحدث ، والثغور الشامية ومن حصونها المصيصة وادنة وطرطوس . »[2]

وتتحدث كتب التاريخ وتسهب عن الغزوات التي قام بها الرشيد في تلك المناطق الرومية المتاخمة لمملكته، وابرزها تلك الغزوة التي قام بها بنفسه سنة ١٨١ هـ . (٧٩٧ – ٧٩٨ م .) « ثم شبت حرب في السنة التالية كالعادة ، واذ كانت

---

١ – انظر كتاب (الروم .. وصلاتهم بالعرب) للدكتور أسد رستم ، الجزء الأول ، ص : ٢٩٤ .

٢ – المصدر المذكور ، ص : ٢٩٦ .

الامبراطورة إيرين ، كانت تعاني متاعب داخلية فقد عجّلت بالصلح على ان تدفع الجزية . على ان هذا الصلح لم يدم الا ريثما تبوّأ الامبراطور نقفور أريكته سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م .) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مهين طلب فيه ان يعيد اليه الجزية التي أديت من قبل ، فلم يحفل الخليفة بشروط الصلح فعادت الحروب وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦) استولى هارون على « هرقلة » واضطر الامبراطور الى ان يدفع جزية جديدة عن نفسه وعن اسرته فوق الجزية العامة .. » [١]

والمؤرخون يجمعون على ان ابا العتاهية هو الشاعر الوحيد الذي اتصل بالرشيد في جميع هذه الأحوال والظروف ، اتصالاً وثيقاً ، وكان يراقب ما يجري داخل الامبراطورية العربية وخارجها بعين المتأمل الباحث عن العبرة ، المتفكر في الامثولة ، وكان يخرج من تأملاته هذه بأشعار لم يعرف الأدب العربي لموضوعاتها من قبل مثيلاً ، فهو اذ يقول مثلاً :

ألا ربّ ذي أجلٍ قد حضر ... كثير التمنّي قليل الحذر
إذا هزّ في المشي أعطافه ... تعرّفت من منكبيه البطر
يؤمّل اكثر من عمره ... ويزداد يوماً بيومٍ أشر
ويمسي ويصبح في نفسه ... كريم المساعي عظيم الخطر
تكون له صولة تتّقى ... وأمر يُطاع اذا ما أمر

---

٣ - (عصر المأمون) للدكتور أحمد فريد رفاعي (المجلد الأول) ، طبعة ثانية (القاهرة ، ١٩٢٧) ص : ١٢٨ - ١٢٩ .

يريش ويبري وفي يومـــه له شغل شاغل لو شعـر
يعُدّ الغرور ويبني القصور وينسى الفناء وينسى القدر
وينسى القرون وريب المنون وينسى الخطوب وينسى العبر

انه اذ يقول مثل هـذه الاقوال – وما أكثر امثالهـــا في شعره ! – لا يعبّر بهـا عن خواطر ناسك منعزل ، ولا يتحدث عن اشياء لم يشاهدهـــا ، وانما هو ينقل هنا صورة حية لرجل عرفه واستاء من مسلكه وتصرفاته ، وهذا الرجل الذي « يهز في المشي اعطافه » و « يؤمل اكثر من عمره » و «يبني القصور» ليس عادياً ، واذا لم يكن وزيراً ، او والياً كبيراً ، فلا بد انه كان أحد أمراء البيت المالك !

إليك هذه الحكاية التي يرويهـا ابو الفرج في « الأغاني » ، قال : « مر القاسم بن الرشيد في موكب عظيم – وكان من أتيه الناس – وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق ، فقام ابو العتاهية حين رآه إعظاماً له ، فلم يزل قائمـــاً حتى جاز ، فأجاز . ولم يلتفت اليه فقال ابو العتاهية :

يتيه ابن آدم من جهله كأنّ رحى الموت لا تطحنه

فسمع بعض من في موكبه ذلك ، فأخبر به القاسم ، فبعث الى ابي العتاهية وضربه مائة مقرعة ، وقال له : يا ابن الفاعلة ! أتعرض بي في مثل ذلك الموضع ؟ وحبسه في داره ، فدس ابو العتاهية الى زبيدة بنت جعفر – وكانت توجه له – هـــذه الأبيات :

حتى متى ذو التيه في تيهه أصلحه الله وعافـــاه

يتيه اهل التيه من جهلهم | وهم يموتون وإن تاهـوا
من طلبَ العز ليبقى به | فإن عز المرء تقـواه
لم يعتصم بالله مـن خلقه | من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب اليهـا بحاله وضيق حبسه – وكانت مائلة اليه – فرقت له ، وأخبرت الرشيد بأمره ، وكلمته فيه ، فأحضره وكساه ووصله ، ولم يرض عن القـاسم حتى بر أبا العتـاهية ، وأدناه ، واعتذر اليه ! »

كل ذلك يشير بالتأكيد الى ان ابا العتاهية لم يكن « يتخيل » وينظم، ولا « يقرأ » الكتب وينقل ولا يسمع ما يقال ، ويعيد ما يسمع . وانما كان يسجل ما تنهيه اليه الحياة نفسها من نظرات، ويُخرج ما انطبع في ذهنه من صور عنها، وعن احداثها وتجاربها .

وهذه الخاصة هي التي ادركها فيه هارون الرشيد ، فقرّبه منه ، وفضله على غيره من الشعراء في عصره ، وأجزل له العطاء .

وتشهد على هذا التقريب مجموعة طويلة من القصص التي وقعت له مع ذلك الخليفة الذكي ، المفرط الذكاء ، والتي روى ابو الفرج القسم الأكبر منها ، وهذا بعضها :

« اجتمعت الشعراء على باب الرشيـــد ، فأذن لهم فدخلوا وأنشدوا ، فأنشد ابو العتاهية :

يا من تبغّى زمناً صالحـاً | صلاح هارون صلاح الزمن
كل لسانٍ هو في ملكه | بالشكر في احسانه مرتهن

فأدهش الرشيد وقال له : أحسنت والله ! وما خرج في ذلك اليوم احد من الشعراء بصلةٍ غيره . »

وفي حكاية ثانية ان هارون الرشيد « أجرى الخيل ، فجاءه فرس يقال له « المشمَّر » سابقـــاً ، وكان الرشيد معجباً بذلك الفرس ، فأمر الشعراء ان يقولوا فيه ،فبدرهم ابو العتاهية بقوله :

جـاء « المشمَّر » والأفراس يقدُمُها
هوناً على رسله منهـــا ، وما انبهرا
وخلـّف الريح حسرى وهي جاهدة
ومرَّ يختطف الأبصـــار والنظرا

فأجزل صلته ، وما جسر أحد بعد ابي العتاهية ان يقول فيه شيئاً . »

وقد بلغ من إيثار الرشيد ابا العتاهية درجة راح يحمل معها ابناءَه على رواية اشعار ذلك الشاعر ، ويحثُّهم على حفظهـــا ، وينصح المغنين بتلحينها ،ثم بلغ من بعض الشعراء ، وقد حسدوه لما نال من حظوة لدى الرشيد ، وشهرة في اوساط العـــامة والخاصة ، ان كانوا يعيبون على الخليفة تقريبه اياه ، ويشون به شتى الوشايات ، فكان هذا يصغي الى بعضهـــا ، ويعرض عن بعض .

ويبدو ان شهرة ابي العتاهية ، تجاوزت في عهد الرشيد ، تخوم الامبراطورية العربيـــة ، وأقبل عليه الاعاجم يتسقطون اخباره ، ويتناقلون اشعاره ، كما تشهد بذلك هذه الحكاية التي رواها ابو الفرج : « قدم رسول لملك الروم الى الرشيد ، فسأل

عن ابي العتاهية واستنشده شيئاً من شعره، وكان يحسن العربية، فمضى الى ملك الروم وذكره له ، فكتب ملك الروم اليه ورد رسوله يسأل الرشيد ان يوجه بأبي العتاهية ، ويأخذ فيه رهائن من اراد ، وألح في ذلك ، فكلـّم الرشيد ابا العتاهية في ذلك ، فاستعفى منه وأباه واتصل بالرشيد ان ملك الروم أمر ان يكتب بيتان من شعر ابي العتاهية على ابواب مجالسه وباب مدينته ، وهما :

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملكٍ قد انقضى مُلكه الى ملك...»

ولكن هذه الصلة الوثيقة بالرشيد ، وذلك الصيت البعيد الذي احرزه ابوالعتاهية لم يمنعاه من ان يحتفظ باستقلال شخصيته وحرية رأيه في حدود ما تسمح ظروف ذلك الزمن باستقلال الرأي وظهور الشخصية المتفردة فقد علمت مما مر بك في الفصل السابق ان الرشيد سجن ابا العتاهية اكثر من مرة ، والمؤرخون يذكرون لهذا السجن اسباباً لا تصمد امام النقد ، ولا يصحّ التسليم بها ، ونحن لا يخالجنا ادنى شك في ان وراء تصرفات الرشيد الصارمة تجاه ذلك الشاعر اسباباً سياسية او عقائدية — اذا شئت — فليس أكيداً ان ولاء ابي العتاهية كان للعباسيين ، ومن الاكيد ان هارون الرشيد كان في منتهى الحساسية لما يتصل بمنصبه وبولاية العهد من بعده ، وكانت هذه الحساسية الدفينة هي التي توجه حركاته وسكناته ، وتهيمن من

وراء ستار على كل اعماله . وليس فتكه بالبرامكة ، على ما فيه من اثارة للجماهير ، وصرامة في العقـاب ، إلا استجابة لتلك الحساسية ، وكذلك هو الشأن في ايلاء العهد من بعده لأولاده الثلاثة : الأمين ، فالمأمون ، فالمؤتمن .

والشائع الذي تذكره الروايات والسير وكتب التاريخ ان الرشيد حبس ابا العتاهية لامتناعه عن قول الشعر في الغزل ، بينما تذكر تلك الكتب والروايات نفسها مثل هذه الحكاية :

حدث اسحاق الموصلي قال : قال لي الرشيد يوماً : « بأي شيء يتحدث الناس ؟ » قلت : « يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة ، وتولي الفضل بن الربيع الوزارة ! » فغضب وصاح بي : « وما أنت وذاك ويلك ؟! » فأمسكت ... فلما كان بعد ايام دعا بنا ، فكان أول شيء غنيته :

اذا نحن صدقناك فضرُّ عندك الصدق
طلبنا النفع بالباطل إذ لم ينفع الحق
فلو قدم صبّاً في هواه ، الصبر والرفقُ
لقدّمت على الناس ، ولكن الهوى رزق

والأبيات لأبي العتاهية . فضحك الرشيد ، وقال : يا إسحاق ! قد صرت حقوداً . »

وروى الطبري ان ابا العتاهية قال في البرامكة بعد نكبتهم هذه الأبيات .

قولا لمن يرتجي الحياة أما في جعفر عبرة ، ويحيـاه
كانا وزيري خليفة الله هارون هما ما هما خليلاه

فذاكم جعفر برمّته في حالق رأسه ، ونصفاه[1]
والشيخ يحيى الوزير اصبح قد نحاه عن نفسه وأقصاه
شتت بعد الجميع شملهم فأصبحوا في البلاد قد تاهوا
سبحان من دانت الملوك له اشهد ان لا إله إلا هو
كذاك من يسخط الإله بما يرضي به العبد يُخزهِ الله
طوبى لمن تاب بعد غرته فتاب قبل الممات ، طوباه !

وتحدث ابو العتاهية مرة فقال : « ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلي ، فلما رجع من خراسان بعد موت الرشيد ، دخلت اليه ، فاستنشدني ، فأنشدته :

أفنيت عمرك إدباراً وإقبالا
تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا
الموت هول فكن ما شئت ملتمساً
من هوله حيلة إن كنت محتالاً
ألم تر الملك الأنسي حين مضى
هل نال حي من الدنيا كما نالا
افناه من لم تفنه القرون فقد
اضحى واصبح عنه الملك قد زالا
كم من ملوك مضى ريب الزمان بهم
فأصبحوا عبراً فينا وأمثالا

---

١ – يريد يحيى بن خالد البرمكي ، والد جعفر ، والنصير الأول لهارون الرشيد في بداية الأمر ، ويشير الى رفع جعفر مصلوباً بعد قتله .

فاستحسنها وقال : « أنت تعرف شغلي ، فعد إلي في وقت فراغي أقعد معك وآنس بك ! » فلم أزل أراقب أيامه ، حتى كان يوم فراغه ، فصرت اليه ، فبينما هو مقبـل علي يستنشدني ويسألني فأحدثه ، إذ انشدته :

ولىّ الشباب فما له من حيلة وكسا ذؤابتيَ المشيب خمارا
اين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس اعظم اهلها أخطارا

فلما سمع ذكري البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية في وجهه ، فما رأيت منه خيراً بعد ذلك ! »

ذلك كله يفيد ان لأبي العتاهية موقفـاً معيناً من الأحداث التي كان المجتمع يمر بها ، وكان الرشيد يتلمس بروح غير مطمئنة ، ذلك « الموقف » ، فاذا خالجه شك في ولاء الشاعر او اشتبه بأمره اشتباهاً لا تدعمه الوقائع ، سلك الى معاقبته سبلاً ملتوية ، كأن يفرض عليه قولاً في الغزل ، أو يحمله على ترك الزهد ، فهو لا يريد ان يواجه الناس بحقيقة ما يخالجه ، ويتحامى ان يشعرهم بحقيقة دوافعه وبواعثه فيما يأتي من أعمال ...

ولهذا ، كانت صلة أبي العتاهية بالرشيد ، على وثاقتها وطولها ، مترددة بين اليأس والرجاء ، بين المهانـــة والاحترام ، وكانت تأخذ من جانب الرشيد ثوب العقاب آنــاً ، ورداء الثواب آنا آخر ...

مع الأمين والمأمون

لم يكن الرشيد ليقعد عن الجهاد ، وإنما كان يرافق الحملات

العسكرية التي يوجهها الى مختلف المناطق ، فلما استفحل شأن رافع بن الليث في إيران (خراسان) ، خرج الرشيد من بغداد مستخلفاً ابنه محمداً الأمين في بغداد ، ومعه ابنه المأمون ، حتى اذا بلغ مدينة طوس عام ١٩٣ ﻫ . (٨٠٨ م) اشتدت به علته التي مات فيها ، وبويع الأمين دون معارض .

غير ان الرشيد وقع في خطأٍ جسيم إذ كان قد بايع بولاية العهد للأمين وله خمس سنين من العمر فقط ، وكانت هذه المبايعة تلبية لرغبة السيدة زبيدة ، ثم بايع لابنه المأمون بعد الأمين سنة ١٨٢ ﻫ . وولاه ممالك خراسان ، ثم بايع لابنه القاسم من بعد الأخوين ، سنة ١٨٦ ، ولقبه المؤتمن . وعلق هذه الوصية في الكعبة . ولما « قسم الدنيا بين هؤلاء الثلاثة قال بعض العقلاء : لقد القى بأسهم بينهم ، وغائلة ذلك تضر بالرعيّة . »

وقد صحت نبوءة ذلك « العاقل » اذ جاء الامين « سيء التدبير ، كثير التبذير ، ضعيف الرأي ، ارعن ، لا يصلح للامارة ، فاول ما بويع بالخلافة أمر ثاني يوم ببناء ميدان جوار قصر المنصور للعب بالكرة ، ثم في سنة ١٩٤ عزل اخاه القاسم عما كان الرشيد ولاه ، ووقعت الوحشة بينه وبين اخيه المأمون ... »[1]

وكان اهم الاحداث التي وقعت في عهد الامين – وهو الذي

---

١ – « تاريخ الخلفاء » للسيوطي ص : ٢٩٧

بقي في الحكم قرابة اربع سنوات - ذلك النزاع المرير على السلطة مع المأمون ، وابو العتاهية يقول ، كما كان يقول كل معاصريه ، انه نزاع على « الدنيا » ، هذه الدنيا التي ما انقطع الزهاد والمتنسكون والاتقياء عن ذمها ، ولومها ، وتقريع الساعين وراءها ، والعاملين بوحي منها ، والراغبين في رضاها .

وقد بدأ ذلك النزاع منذ اليوم الذي اخذ يفكر فيه الأمين بنزع ولاية العهد ، حتى اذا اخذ العهد على الناس لابنه موسى ، وكان يومئذ « لا ينطق بأمر ، ولا يعرف حسناً ، ولا يعقل قبيحاً ، ولا يخلو من الحاجة الى من يخدمه في ليله ونهاره » اعاد المأمون للرعية كلها ما ورد في وصية الرشيد المودعة في الكعبة ، وهو « ان الغادر منهما خارج من الأمر : ايهما غدر بصاحبه والخلافة للمغدور به ! » .

وسيّر الأمين جيشاً « قوامه اربعون الفاً ، وقيل خمسون ، وزوده بالسلاح الكثير والاموال الوافرة ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولة ، جليل القدر مهيب الجانب ، وهو علي بن عيسى بن هامان ، وقد خرج معه الامين الى ظاهر المدينة مشيعاً موعاً ، وكان في حكم اليقين ان الظفر سيكون حليفه ، لكثرة عدده ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون - وعسكره في حدود اربعة آلاف - ثم كانت الغلبة لطاهر ، ورد الخبر بنعي علي بن عيسى الى الامين وهو يصيد . قال للذي اخبره بذلك : دعني فان كوثراً قد اصطاد سمكتين وانا الى الآن ما اصطدت شيئاً ! وكان كوثر هذا خادماً من

الخصيان . قيل ان الأمين كان يحبه كثيراً . »[1]

وهكذا ... اضطرب الأمر وعاشت بغداد اكثر من سنة ونصف وسط ذلك الاضطراب العظيم ، ولم يبق فيها من لم يتأثر بذلك النزاع ، اذ حوصرت حصاراً شديداً ، وقطع قائد المأمون مواد الاقوات عنها ، و « ضاقت النفوس ، وأيسوا من الفرج ، واشتد الجوع .. ولما عم البلاء ، اجتمع التجار بالكرخ على مكاتبة طاهر انهم ممنوعون منه ومن الخروج اليه ، ومغلوب على اموالهم وان العراة والباعة هم الآفة ... وثارت العراة ذات يوم في نحو مائة الف بالرماح والقصب والطرادات والقراطيس على رؤوسها . . ثم ثارت المأمونية على العراة من اصحاب محمد الأمين ، ففرّق منهم وقتل واحرق نحو عشرة آلاف .. وباع الامين ما في خزانته سراً ، وفرق ذلك ارزاقاً فيمن معه ، ولم يبق معه ما يعطيهم عند مطالبتهم ... »[2] وانتهت المعركة او المعارك اخيراً ، بقتل الأمين ، وحمل رأسه الى المأمون في خراسان .

كان من شأن هذه الاحداث الجسام ، ان تحمل كل من شهدها وعاصرها - لا ابا العتاهية وحده - على التأمل في احوال الدنيا ، والتلفت الى الموت ، والتفكير في البلاء . فاذا تنبهنا الى ان ابا العتاهية كان قد شارف الستين من سنيه وتجاوزها يوم وقعت هاتيك الاحداث ، وانه قنط من الحب ، حب عتبة ، ادركنا

---

١ - « عصر المأمون » ج : ١ ص : ١٩٨
٢ - مروج الذهب : ج ٣ ، ص : ٣١٨ - ٣٢٥

سر هذا « العروف » عن العالم الذي يطفو على سطح كل خاطرة من خواطره الشعرية ، ويكمن وراء كل قصيدة من قصائده ، ثم ادركنا عمق الهوة التي تفصل بين روحه والفرح ، وتجعله برماً ، كئيباً ، لا يرى بهجة في عيش ، ولا سبيل الى متعة . ومما يذكر في هذا الصدد ان رجلا استشاره في ما ينقشه على خاتمة ، فقال له : انقش عليه : « لعنة الله على الناس ! » وانشد :

برمتُ بالناس واخلاقهم فصرت استأنس بالوحده
ما اكثر الناس لعمري وما اقلهم في حاصل العِدّه

وأحسب ان ابا العلاء المعري لم يزد شيئاً على هـذه المواقف التي اتخذها قبله ابو العتاهية ، يوم قال :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوّت انسان فكدت اطير »

ولنلاحظ هنا ان هذا الشيخ الذي ارهقه الألم وبرم بالناس واخلاقهم ، كان قد انشد الامين حين ولي السلطة هذه الابيات:

يا ابن عم النبي خير البريه انما أنت رحمة للرعيه
يا إمام الهدى الامين المصفّى بلباب الخلافة الهاشميه
لك نفس أمّارة لك بالخير ، وكف بالمكرمات نديه

وانه كان يتلقى من زبيدة مائة دينار كل سنة ، وحين ولي المأمون كان ابو العتاهية صلة الوصل بين السيدة زبيدة والخليفة ، وانه اقام على غشيانه قصر المأمون بعد ان قد تنسّك وهجر العالم في ايام الرشيد ، وانه ظل على صلة بولاة المأمون ووزرائه ، يتقبل هداياهم ، ويغتنم كل مناسبة لاستدرار عطفهم ونيل

عطاياهم ، فقد روي انه عندما قتـل الأمين ارسلت زبيدة الى ابي العتاهية ، ان يقول على لسانها ابياتاً يستعطف بها المأمون ، فأرسل اليها هذه الأبيات :

ألا ان صرف الدهر يُدني ويبعد
ويمتع بالآلاف طوراً وينفد
اصابت بريب الدهر مني يدي يدي
فسلّمت بالأقـــدار ، والله احمد
اقول لريب الدهر : ان ذهبت يد
فقد بقيت ، والحمد لله ، لي يد
اذا بقي المأمون لي فالرشيد لي
ولي جعفر لم يفتقد ، ومحمد .

وكتبت مرة ثانية إليه من قول ابي العتاهية ايضاً :

لخير إمام قام من خير عنصر
وافضل راقٍ فوق اعواد منبر
ووارث علم الأولين وملكهم
الى الملك المأمون من ام جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها
إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
اصبت بأدنى الناس منك قرابة
ومن هو لي روحي ، فعيل تصبري . .

فلما نظر المأمون الى كتابها وجّه اليها هدية جزيلة ، وكتب يسألها القدوم ، حتى اذا وصلت بعد زمن قالت له : « الحمدلله !

لئن فقدت ابناً خليفة ، فلقد اعتضت ابناً خليفة ، ما خسر من اعتاض مثلك ، وما ثكلت أم ملأت يديها منك . فأسأل أجراً على ما أخذ ، وإمتاعاً بما وهب » . فقال المأمون : « ما تلد النساء مثل هذه ! فماذا أبقت في هذا الكلام لبلغاء الرجال ؟ » ثم قال لها : « من قائل الأبيات ؟ » قالت : « ابو العتاهية » قال : « وكم أمرت له ؟ » قالت : « عشرين ألف درهم » . قال المأمون : « وقد أمرنا له بمثل ذلك » واعتذر اليها من قتل أخيه الأمين ، وعزاها ، وبكى معها عليه .

وكانت أكبر تجربة ، وآخر التجارب التي عرفها أبو العتاهية في أيام المأمون ، كما عرفتها بغداد كلها ، إنما هي تلك الواقعة التي وقعت بين المأمون وابراهيم بن المهدي .

« ذلك بان المأمون لغرض سياسي ، او لنزعة شيعية ، او لتقدير كفاية خاصة ، استدعى واحداً من سلالة سيدنا علي ، رهو « علي الرضا » رضي الله عنه ، وهو ثامن أئمة الشيعة او حزب العلويين ، الى مرو واختاره ولياً لعهد الخلافة ، مع انه يكبره باثنين وعشرين سنة . وربما كان المأمون في رأيه هذا صادراً عن رأي وزيره الفضل الذي زين له ان هذه أنجح وسيلة لتسكين ثورة العلويين في الغرب [1] ... »

ويذكر بعض المؤرخين ان المأمون همّ بخلع نفسه ، وضرب الدراهم باسم علي الرضا ، وزوجه ابنته ، وكتب الى الأمصار

---

١ - (عصر المأمون) - المجلد الأول . ص : ٢٦٥

بذلك ، وغيّر شعار الدولة وكان السواد في اللباس ، فحوله الى الخضرة ، وكان من جراء هذه التصرفات المأمونية ان ان « اشتد ذلك على بني العباس جداً ، وخرجوا عليه ، وبايعوا ابراهيم بن المهدي ، ولقب « المبارك » فجهز المأمون لقتاله ، وجرت أمور وحروب ، وسار المأمون الى نحو العراق ، فلم ينشب علي الرضا ان مات في سنة ٢٠٣ هـ . فكتب المأمون الى أهل بغداد يعلمهم انهم ما نقموا عليه إلا ببيعته لعلي وقد مات ، فردوا جوابه أغلظ جواب ، فسار المأمون ، وبلغ ابراهيم بن المهدي تسلل الناس من عهده ، فاختفى في ذي الحجة ، فكانت أيامه سنتين إلا أياماً ، وبقي في اختفائه مدة ثماني سنين [٢] . »

أثر الأحداث

لا جدال ان لهذه الأحداث الجسام التي مر بها المجتمع في العراق ، وعاصرها ابو العتاهية وتمرس بها نصف قرن وما يربو عليه ، لا جدال ان لها الأثر الأكبر في كل ما اتجه اليه من بعد وعرف ، وصوّر ، ووصف .

ان أرجوزة « ذات الأمثال » التي تحوي أربعة آلاف مثل ، لا يمكن ان ينظمها سوى أبي العتاهية ، لأنها نتيجة تجارب وأحداث قل ان مر بها غيره .

---

٢ — (تاريخ الخلفاء) للسيوطي . ص : ٢٠٧

وان أكثر العناوين التي تتوّج قصائده وأشعاره في ديوانه المطبوع سنة ١٨٨٦ في بيروت ، تشير الى تأثره بتلك الأحداث على نحو أو آخر ، وهاك بعض الأمثله :

قال ابو العتاهية يبكّت الانسان بفرط حبه لدنياه .

وقال في صولة الموت ومرّ سكراته .

وقال في فناء الورى .

وقال في العدول عن الناس الى الله .

وقال في وصف عواقب الظلم وفتكة الموت .

وقال في صروف الدهر وتقلباته .

وقال في القناعة وفضلها .

وقال يحث الانسان على عدم الركون الى الزائل والفاني .

كل هذه الاقوال – وما أكثرها ! – تؤكد ان فهم أبي العتاهية لا يتحقق لقارئه إلا عندما يفكر في الاحداث التي عايشها ، والتجارب التي مر بها ، أي في تاريخ العصر الذي كان فيه برمته ، وفي سيرته كماشق أخلص وأخفق ...

وتلك هي تجربته الكبرى الخاصة التي انسجم بها مع أحداث عصره الاليمة ، وهي التي نعرض لها في الفصل المقبل .

حبٌّ خائبٌ

الظـــاهر ان حب ابي العتاهية جارية الخيزران – عتبة – قارب أو كاد ، حب قيس ليلى ، أو حب العبـاس بن الأحنف تلك الفتاة التي خلـّدها ، والتي كانت تحمل اسم « فوز » ، أو حب جميل بثينة ، ولكن لم يتح لذلك الحب ، حب ابي العتاهية ان ينال من احترام الناس وتقديرهم وعطفهم ، ما اتيح لحب قيس والعباس وجميل . والسر في ذلك بسيط ، هو ان شخصية المحب تخلع على الحب قيمته ، ولم يوفق ابو العتاهية الى الارتفـــاع بشخصيته ، وجعلها في مستوى غرامه . أضف الى ذلك ، ان اخفاقه رده الى حالة أحسن ما توصف به أنها « باهتة » ، فان الألم أو العذاب الذي لقيه في حياته العاطفية لم يرسخ في شاعريته ولا في كيانه النفسي ، على أساس عاطفي صرف ، كما جرى لقيس أو لجميل ، وانما جنح به الى اليأس الفاتر ، الى زهد مصطنع في الجانب الشخصي ، صحيح في الجانب المنطقي ، فأنت لا تملك اذ تقرأ اشعاره اليوم إلا ان تشعر بالملل والرتابة ، ولا تستطيع

ان تتذوّق ما فيها من صدق وقوة إلا بعد ان تتصور مجمل الآفاق السياسية ، والحوادث الاجتماعية ، والقضايا الفكرية والاخلاقية التي عاش في وسطها .

لذلك ، نجد معاصريه أعجبوا به اعجاباً لا مزيد عليه ، ونجدهم نسوا في أواخر أيامه قصته الغرامية ، ولم يذكرها سوى المؤرخين الذين عنوا عناية خاصة بالتفاصيل . ويبدو ان تلك القصة كانت تشغل حيّزاً كبيراً من التاريخ المنسي ، فهذا أبو الفرج يقول في آخر حديثه عن ابي العتاهية في « الأغاني » :

« ... ولم اذكر ههنا ، مع اخبار أبي العتاهية ، اخباره مع عتبة – وهي من اعظم اخباره – لأنها طويلة وفيها أغان كثيرة . »

والمسعودي يقول في معرض الحديث عن حبه : « ولأبي العتاهية أخبار وأشعار كثيرة حسان ، قد قدمنا فيما سلف من كتبنا جملاً مما اختير من شعره وما انتخب من قوافيه ، وكذلك قدمنا من ذلك لمعاً فيما سلف من هذا الكتاب في اخبار بني العباس ... » ثم اورد بعض ابياته الغزلية في عتبة .

والملحوظ في تاريخ الأدب العربي أن أغراض الشاعر ، أو الموضوعات التي ينظم فيها قصائده ، هي التي تحدد منزلته ، وكثيراً ما كان يطغى منها غرض على آخر ، والغرض الطاغي يصبح ميزة يعرف بها الشاعر ، بل يصبح كلٌّ من الموضوع والشاعر علماً على الآخر ، فاذا ذكر عنترة مثلاً انصرف الذهن الى الحماسيات ، واذا ذكر ابن أبي ربيعة تذكر العربي مغازلة

النساء ، واذا ذكر قيس كان اسمه مرادفاً للحب القوي العنيف، وهلمّ جرا ... وقد عاش أبو العتاهية ، بعد اجتيازه دور الحب والغرام ، نحواً من أربعين سنة ، في حالة اضطراب وخيبة ، أوغل خلالها « يتسلى » بالحكم والامثال والمواعظ ، ويُعمل ذهنه ، كل ذهنه ، في الموت ، وبلاء الدنيا ، وغرور الانسان ، فلم يحفظ الناس من سيرته سوى هذا الجانب الاخير ، وهو في واقع الامر، ضئيل ، حين يقاس بالجوانب الاخرى من شخصيته الشعرية ، وحقيقته الانسانية .

بداية القصة

كان أبو العتاهية طويل القامة،دقيق العظام ، خفيف اللحم، أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جعدة ، وهيئة حسنة .

وليس في هذه الصفات ما ينفّر منه النساء ، بل هي أذا صح انها صفاته الجسمانية ، مما يقرّبهنّ اليه ، ويحملهن على إيلائه العطف ومبادلته العاطفة . ولكن للقلب أسراراً تتخطى المظهر ، وتتصل اكثر ما تتصل بجوهر الشخصية ، وشخصية المرأة على الأخص . ونحن لا نعرف من شخصية عتبة ، سوى انها كانت «جارية» ، وانها فتنت لب ابي العتاهية ، ثم لم تستجب لشعوره بحال ، رغم كل ما وضح لعينيها من صدقه ، وكل ما توسل به اليها من وسائل ...

قدم ابو العتاهية من الكوفة وهو في الثامنة والعشرين من سنيه الى بغداد ، حتى اذا اتصل ببلاط الخليفة العباسي ،

وشاهد تلك الجارية وقعت من نفسه في أعلى مكان ، حـاول ان يبوح لها بما في نفسه ، ولكنه أخطأ الاسلوب ، فيما نقدر ، إذ أسفّ أول مرة ، وكشف عن هوان أو صغـار نفرت منه عتبة ، ثم لم تستطع ان تتخطاه ، وكان صغاره يلوح لعينيها وراء تعلقه بها ، كلما راجعت قلبهـا في أمره . ويبدو بكثير من الوضوح لمن يتتبع سلوكها معه انهـا اطلعت على سيرته وسيرة اجداده وحياة اسرته ، اذ كان أول ما فسرت به رفضهـا يده أنه « بائع جرار ، يتكسب بالشعر » .

ولكن أبا العتاهية لم ييأس ، فقام بحركة التفاف حولهـا ، وراح يتزلف ، ويغرق في الزلفى للخليفة ، ويكد ذهنه في نظم المدائح له ، ذاهباً في اقصى ضميره الى انه قادر على نيل حبيبته، عن طريق الخليفة نفسه ، ومن سبيل الثقة التى يحظى بهـا عند هذا ، فلما اطمأن الى رضا الخليفة عنه ، اخذ يسعى في استغلال هذا الرضا للاستيلاء على قلب عتبة . ووقف عند ذلك الاسلوب لا يحول عنه ولا يزول ، ووقفت عتبة عند رفضها اياه لا تحول ايضاً ولا تزول ، وظلت قصته معهـا تدور في هـذه الدائرة من بدايتها ، لا تتقدم خطوة ، ولا تتأخر خطوة .

وانا لنعثر على « رتابة » في اشعاره الغراميـة ، تشبه رتابة زهدياته ، فهو يردد في غزله المعاني التي استيقظ عليها قلبه منذ علق عتبة الى آخر يوم في حياته :

يا عتب هجرك مورث الادواء والهجر ليس لودّنا بجزاء

يا صاحبيّ لقد لقيت من الهوى جهداً، وكل مذلة، وعناء
علق الفؤاد بحبها من شقوتي والحب داعية لكل بلاء
اني لأرجوها وأحذرهـا فقد اصبحت بين مخافة ورجاء
بخلت علي بودها وصفائهـا ومنحتها ودي ومحض صفائي
فتخالف الاهواء فيما بيننـا والموت عند تخالف الاهواء

وكان اول شعر قال فيها :

راعني يا زيـد صوت الغراب بحذاري للبين من احبابي
يا بلائي ويا تقلقـل احشائي وتعسي لطائر نعّاب !
أفصح البين بالنعيب وما افصح لي في نعيبه بالإياب
فاستهلت مدامعي جزعاً منه بدمع ينهل بالتسكاب
ومنعت الرقاد حتى كـأني ارمد العين او كحلت بصاب
قلت للقلب اذ طوى وصل سُعدى لهوان البعيد بالأنساب
انت مثل الذي يفر من القطر حذار الندى الى الميزاب

إنه يلمس هنا – في بدء من حبه – ظهر الغيب ويخالجه، شعور صحيح بما سيكون من امره مع هذا الغرام الجديد، بعـد ان طوى وصل سعدى، وملكت عليه عتبة اقطار وعيـه، وسيضطرب حيال هذا الشعور الذي يخالجه، فلا يحسن التصرف معه، وتفوته كل فرحة مؤاتية للحظوة في عيني فاتنته. سيعثر اثناء سيره وراء حبه الجديد في كل خطوة يخطوها، وتعود قصته من حيث بدأت في كل مرة، وتظهر لنا عتبـة، من شعره، اقوى روحاً، واعلى همة، في كل مرة.

رواية أبي العتاهية

وقد روى أبو العتاهية نفسه ، كيف كانت بداية تعلقه بعتبه قال : « قدمنا من الكوفة ثلاثة فتيان شباباً ادباء ، وليس لنا ببغداد من نقصده ، فنزلنا غرفة بالقرب من الجسر ، فكنا نبكر ، فنجلس في المسجد الذي بباب الجسر في كل غداة ، فمرت بنا يوماً امرأة ، راكبة معها خدم سودان ، فقلنا : من هذه ? قالوا : خالصة ! فقال احدنا :قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعراً ، فأعنّاه عليه ، ثم لم تلبث ان مرت اخرى راكبة معها خدم بيضان ، فقلنا : من هذه ? فقالوا : عتبة ! فقلت قد عشقت عتبة ! فلم تزل كذلك في كل يوم الى ان التأمت لنا أشعار كثيرة ، فدفع صاحبي بشعره الى خالصة ، ودفعت أنا بشعري الى عتبة ، وألححنا إلحاحاً شديداً ، فمرة تُقبل أشعارنا، ومرة نطرد ، الى ان أجدّوا في طردنا . فجلست عتبة يوماً في أصحاب الجوهر ، ومضيت فلبست ثياب راهب ، ودفعت ثيابي الى انسان كان معي ، وسألت عن رجل كبير من أهل السوق ، فدُلِلت على شيخ صائغ ، فجئت اليه فقلت : « إني قد رغبت في الاسلام، على يدي هذه المرأة » فقام معي وجمع جماعة من أهل السوق ، وجاءها . فقال : « ان الله قد ساق اليك أجراً ، هذا راهب قد رغب في الاسلام على يديك ! » فقالت : « هاتوه ! » فدنوت منها ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وقطعت الزنار ، ودنوت فقبّلت يدها ،

فلما فعلت ذلك ، رفعت البرنس فعرفتني ، فقالت : « نحّوه ! لعنه الله » . فقالوا : « لا تلعنيه فقد أسلم ! » فقالت : « انما افعل ذلك لقذره ! » فعرضوا عليّ كسوة فقلت : « ليست لي حاجة الى هذه ، وانما أردت ان اشرف بولائها ، فالحمد لله الذي منّ عليّ بحضوركم » وجلست ، فجعلوا يعلمونني الحمد ، وصليت معهم العصر ، وأنا في ذاك بين يديها ، أنظر اليها لا تقدر لي على حيلة ، فلما انصرفت لقيت خالصة ، فشكت اليها فقالت : « ليس يخلو هذان من ان يكونا عاشقين أو مستأكلين [1] » فصح عزمها على امتحاننا بمال على ان ندع التعرض لها ، فان قبلنا المال ، فنحن مستأكلان ، وإن لم نقبله فنحن عاشقان . فلما كان الغد مرت خالصة ، فعرض لها صاحبها ، فقال له الخدم : « اتبعنا » فاتبعهم . ثم لم نلبث ان مرت عتبة ، فقال لي الخدم : « اتبعنا » فاتبعتهم ، فمضت بي الى منزل خليط لها بزّاز [2] ، فلما جلست ، دعت بي فقالت لي : « يا هذا ! انك شاب ، وأرى لك أدباً ، وأنا حرمة خليفة ، وقد تأنّيتك ، فان أنت كففت وإلا أنهيت ذلك الى امير المؤمنين ثم لم آمن عليك ! »

« قلت : فافعلي بابي أنتِ وأمي ! فإنك ان سفكت دمي أرحتني ، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك إذا لم يكن لي فيك نصيب فأما الحبس ، والحياة ولا أراك ، فأنت في حرج من ذاك .

---

١ – المستأكل : طالب الأكل .

٢ – البزاز : بائع البز ، وهي الثياب أو متاع البيت .

فقالت : لا تفعل يا هذا ! وأبق على نفسك ! وخذ هذه الخمس المائة الدينار ، واخرج عن هذا البلد ! فلما سمعت ذكر المال وليت هارباً ، فقالت : ردوه ! فلم تزل تردني ، فقلت : جعلت فداك ! ما أصنع بعرض من الدنيا وأنا لا أراك؟! وإنك لتبطئين يوماً واحداً عن الركوب فتضيق بي الارض بما رحبت ! وهي تأبى إلا ذكر المال حتى جعلت لي الف دينار ، فأبيت ، وجاذبتها مجاذبة شديدة ، وقلت : لو أعطيتني جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لي فيه حاجة وأنا لا أراك بعد ان أجد السبيل الى رؤيتك ...

« وخرجت فجئت الغرفة التي كنا ننزلها فاذا صاحبي مورم الأذنين ، وقد امتحن بمثل محنتي ، فلما مد يده الى المال صفعوه وحلفت خالصة لئن رأته بعد ذلـــك لتودعنه الحبس . فاستشارني في المقام ، فقلت : اخرج وإياك ان تقدر عليك .

« ثم التقتا فاخبرت كل واحدة صاحبتها الخبر ، واحمدتني عتبة ، وصح عندها أني محب محق ، فلما كان بعـــد أيام دعتني عتبة فقالت : بحياتي عليك ! — إن كنت تعزها — إلا أخذت ما يعطيك الخادم فأصلحت به من شأنك ، فقد غمني سوء حالك ، فامتنعت ، فقالت : ليس هذا مما تظن ، ولكني لا أحب ان أراك في هذا الزي . فقلت : لو أمكنني ان تريني في زي المهدي لفعلت ذلك ، فأقسمت علي ، فأخذت الصرة ، فاذا فيها ثلاثمائة دينار ، فاكتسيت كسوة حسنة ، واشتريت حماراً » .

تلك هي رواية أبي العتاهية عن غرامه الأكبر [1] ، وفيها أكثر من دلالة ، فهي تشير الى ان معرفته بعتبة سبقت قدومه على المهدي، وتؤكد ان موقف عتبة منه اتسم بالتردد أول أمرها معه ، وتبين ان شعورها نحوه لم يكن عدم الاكتراث او اللامبالاة ، وإنما كانت تضعه دوماً بين الخوف والرجاء .

ولو أردنا ان نبحث في ثنايا هذه القصة عن أسباب الطول في عمر ذلك الحب الذي دام قرابة عشرين سنة ، لوجدنا ان عتبة هي المسؤولة عن إطالته ، لأنها على ما يظهر لم « تجَد بوصل ولا ببَين » ، وظلت تتأرجح بينهما ، وعاشقها يتأرجح معها لا يملك ان يقنط ، ولا يجد راحة في أمل ، وإن كان يبارر موقفه بما هو خارج عن حقيقة موقفها :

وإني لمعذور على طول حبها
لأن لها وجهاً يدل على عذري
إذا ما بدت – والبدر ليلة تمه –
رأيت لها فضلاً مبيناً على البدر
وتهتز من تحت الثياب كأنها
قضيب من الريحان في ورق خضر
أبى الله إلا ان أموت صبابة
بساحرة العينين طيبة النشر

---

١ – نقلناها هنا عن « تاريخ بغداد » لابن الخطيب ، الجزء السادس ، ص : ٢٥٤ – ٢٥٦ .

وتبسم عن ثغر نقي كأنــه
من اللؤلؤ المكنون في صدف البحر
يخبرني عنـــه السواك بطيبـه
ولست به – لولا السواك – بذي خبر

غرام يشتهر

وكان ان ذاع خبر هذا الغرام ، وشاع وانتشر ، في طول البلاد وعرضها ، ولا سيما بعد اتصال أبي العتاهيـــة بالقصر ، وتعرفه الى حاشية الخليفة ، ونساء البيت المالك خاصة ، وعلى رأسهن الخيزران ، والسيدة زبيدة ، وريطة بنت العبـــاس . ولكن العامل الأكبر في انتشاره ، وذيوع أخباره ، إنما هو شعر أبي العتاهية نفسه ، وقصيدته الشهيرة « ألا ما لسيدتي ما لها » التي تبدأ بالتشبيب بعتبة ، وتنتهي بمدح الخليفة ، وفيها يقول :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالهـــا
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات النفوس لما قبل الله أعمالها

هذه القصيدة التي طيرت صيت أبي العتاهية في الآفاق ، وجعلته موضع حسد الشعراء ، هي التي أطلعت الناس أيضاً على سر شاعرها وتعلقه بجارية الخليفة .

ولا يبعد ان يكون اشتهار ذلك الغرام بين عتبـــة وأبي العتاهية ، سبباً في احراج عتبة ، وامتناعها عليه ، وتعزّزهـا

في النظر اليه ، وما دام يحبها ، ويعرف الناس كلهم انه يحبها ، فأية متعة لها بعدُ في الدنو منه ، وتنويله ما يريد ؟!

ربما ذوى ما في نفسه ، وربما قعد به الوصال عن الاشادة بذكرها ، بل ربما تغير عليها اذا هي غيرت موقفها منه ، ولم يبق له سر ، ولا خفي عنها شيء مما يضمر نحوها ، ويحمل لها في طيات ضلوعه ، وهو الذي قال يخاطبها :

ولقد صبوت اليك حتى صرت من ألم التصابي
يجد الجليس اذا دنا ريح الصبابة من ثيابي

وقد وصف حتى هذا الجو الذي ساد وشاع :

منحتها مهجتي وخالصتي فكان هجرانها مكافاتي
هيّمني حبها وصيّرني أحدوثة بين جاراتي

بماذا تطمع بعد عتبة من حبه ؟ أتريد المال وهي التي عرضته عليه في بدء من تعلقه بها ؟ أم تسعى وراء مغنم أدبي او معنوي وقد أعطاها كل ما يمكن ان يعطيها في هذا المجال ؟ أم تستجيب لرغبة جسدية يبدو أنها لا تشعر بها ؟ أم تصغي لما يريده منها الناس ، وهي تعلم انه هو الذي يشفّعهم به ، ويحدوهم على التدخل في شأن يعنيها ؟!

– الواقع ان بوح أبي العتاهية لكل غادٍ ورائح ، ومثابرته على ذلك البوح طيلة أعوام وأعوام ، أفقدت غرامه في شعور عتبة ، كل انجذاب نحوه ، فآثرت الصد ، وأقامت عليه .

وعندما ولى هارون الرشيد السلطة ، وكان أبو العتاهية ميالاً اليه ، مقرباً منه ، أحب هـذا ، ان يطلق آخر سهم في كنانته ، عله يصيب غرضه ، وراح يلحّ على الخليفة في شأن عتبة ، والخليفة يعده بتزويجها منه ، ولكن عليه ان يسألها في ذلك ، « فان أجابت جهزها وأعطاه مالاً عظيماً ... ثم ان الرشيد سنح له شغل استمر به ، فحجب أبو العتاهية عن الوصول اليه ، فدفع الى مسرور الكبير (خادم الرشيد) ثلاث مراوح ، فدخل بها على الرشيد وهو يتبسم وكانت مجتمعة ، فقرأ على واحدة منهن ، مكتوباً :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي فاذا لها من راحتيه شميم

فقال : أحسن الخبيث . واذا على الثانية :

أعلقت نفسي من رجائك ماله
عنَقٌ يخث اليك بي ورسيم

فقال : قد أجاد ، واذا على الثالثة :

ولربما استيأست ثم أقول : لا ان الذي ضمن النجاح كريم !

فقال : «قاتله الله ! ما أحسن ما قال» . ثم دعا به ، وقال : ضمنت لك يا أبا العتاهية ، وفي غدٍ نقضي حاجتك ان شاء الله .

« وبعثت الى عتبة إن لي اليك حاجـة فانتظريني الليلة في منزلك ، فأكبرت ذلك وأعظمته ، وصارت اليه تستعفيه ، فحلف لها ان لا يذكر لها حاجته الا في منزلها . فلما كان الليل ،

سار اليها ومعه جماعة من خواص خدمه ، فقال لهــا : « لست اذكر حاجتي أو تضمنين قضاءَها . » ، قالت : « انا أمتك ! وامرك نافذ في ما خلا امر ابي العتاهيـــة ، فإني حلفت لأبيك رضي الله عنه ، بكل يمين يحلف بهـــا بر وفاجر ، وبالمشي الى بيت الله الحرام حافية ، كلما انقضت عني حجّة ، وجبت عليّ اخرى ، لا اقتصر على الكفّارة . وكلما افدت شيئاً تصدّقت به إلا ما اصلّي فيه ! » وبكت بين يديه ، فرقّ لها ورحمهـــا وانصرف عنها .

« وغدا عليه ابو العتاهية ، فقال له الرشيد : والله ماقصّرت في امرك ، ومسرور ، وحسين ، ورشيد ، وغيرهم شهـــود لي بذلك . وشرح له الخبر .

« قال ابو العتاهية : فلما اخبرني بذلك مكثت ملياً لا ادري اين انا : قائم او قاعد ، وقلت : الآن يئست منها اذ ردّتك ، وعلمتُ انها لا تجيب احداً بعدك !

« ولبس ابو العتاهية الصوف وقال في ذلك من ابيات :

قطعت منها حبائل الآمال وحططت عن ظهر المطيّ رحالي
ووجدت برد اليأس بين جوانحي
فغنيت عن حلّ وعن ترحال . . .[1] »

ويتضح من كلام عتبة للرشيد – وهو من هو في جلالة قدره وعظيم شأنه – ان قرارها في رفض ابي العتاهية اتخذته منذ ايام

---

١ – مروج الذهب ، ج ٣ ، ص : ٢٧٤ - ٢٧٥ .

المهدي ، ولم يبق في استطاعتها ان تعود عنه !

اما العوامل الكامنة وراء ذلك القرار النهائي الخطير ، فلا يمكننا تبيّنها ، وسنظل واقفين منها على حافة مجهول . أيكون ثمة من يملأ قلب عتبة عند تعرف ابي العتاهية اليها ! ام هو المهدي نفسه كان ينفّرها منه ؟ ام ان شخصية ابي العتاهية لم تستهوها رغم كل ما اظهر من حب واخلاص ؟ ام انها كانت قد نذرت العفة والتبتل ؟

يلوح لي – من خلال السلوك الذي سلكه ابو العتاهية من بعد – ان الفرضية الاخيرة معقولة اكثر من سواها ، ومعنى « معقوليتها » أن عتبة هي التي حملته على ذلك اللون من التفكير ، وصادف ذلك اللون هوى في نفسه ، وزاداً كبيراً من التجارب والأحداث، في حياته .

غير اننا لا نستطيع الجزم بصحة هذه الفرضية ، ولو كانت عتبة شاعرة تنظم خواطرها وتبث تأملاتها وأحاسيسها على نحو ما هي حال عُليَّة بنت المهدي أو رابعة العدوية – وكلتاهما معاصرتان لأبي العتاهية وعتبة – لأمكن تبيّن الحقيقة ، أو إلقاء بعض النور على ما وراء الحالة المجهولة التي نواجهها ، ولا نبصر منها شيئاً .

مرارة الخيبة

لم يكن اثر الخيبة في نفس إبي العتاهية « نقمة » على المرأة ،

وتبرماً بالنساء ، ومعاداة للحيـــاة ، ولا كان تشاؤماً ، ولا استرسالاً مع الألم .

كل ما بعث الحب الخائب في نفسه من أفكار ، ان صرفه الى حديث « الموت » ، وغرور الدنيا ، وغدرهـــا ، وتفاهة الطمع بها ، والحرص عليها ، وقصر لذائذها :

نراع لذكر الموت ساعة وقته   ونغترّ بالدنيا ، فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها   وما كنت فيه ،فهو شيء محبب

***

لا تأمن الدنيا على غدرهـا   كم غدرت قبـل بامثالـكا
قد أجمع الناس على ذمهـــا   ومـا أرى منهم لهـا تاركا

***

إنما أنت مستعير ، ما سوى بردين ، والمعار يُرَدّ
كيف يهوى أمرؤ لذاذة أيامٍ عليه الأنفاس فيها تعد

ولم يكن هذا الجو جديداً على ابي العتاهية ، ولكن ايغاله فيه ، وانصرافه اليه ، وتنكبه الحديث عن كل ما عداه ، هي الأشيـــاء التي بدت جديدة في حياة شاعر مثله ، قضى شبابه مخنثاً ، ومعظم عمره عاشقاً ، وأكثر أوقاته في منادمة الخلفـاء والأمراء والولاة ونظم الشعر في مدحهم ونيل جوائزهم .

كان أثر الصدمة إذن في نفسه ، يتسم بطابع « الهدوء » ،

ويبتعد عن الصخب، ويعبر عن نفسه ، أكثر ما يعبر ، في التأمل والموعظة والتفكر في عواقب الأعمال ، ونتائج السلوك ، ولا يزيد على ذلك شيئاً .

ولا ندري إن كان هو الهرم أو كبر السن الذي جعل أبا العتاهية هادئاً في تلقي الصدمة ، أم هو اليأس الذي صرفه عن كل شيء ، وحدا به على ترقب النهاية ، وانتظار يومه الأخير من غير جلبة ولا ضوضاء .

بيد ان ظواهر الأمور وقرائنها تشير الى ان كبر السن اختلط باليأس ، فأفضيا معاً الى تلك الحالة النفسية التي تشيع في مجمل ديوانه الزهدي ، وتنبث في كل حركاته وسكناته .

ماذا حل بعتبة ؟

على ان هنالك أمراً سكت عنه المؤرخون ، ولم يلتفت اليه أحد منهم ، فآخر عهدنا بعتبة هو موقفها مع هارون الرشيد ، وأبو العتاهية تركها وشأنها ، فلم يأت من بعد ذلك الموقف على ذكرها بشيء ، رغم ان الخليفة حبسه ، وألح عليه ان ينظم في الغزل ، وهناك رواية تقول : انه حين ألح عليه ذلك الالحاح أرسل أبياتاً يتحدث فيها عن شوقه الى « قعيدة بيته » أي الى زوجته . ترى ماذا حل بعتبة ؟

يغلب على الظن انها ماتت في ايام الرشيد ، أو ابان الفتنة الكبرى التي عصفت بأهل بغداد ، يوم وقعت الواقعة بين الأمين

والمأمون ، أي بعد الرشيد بقليل .

وكان انصراف ابي العتاهية الى حديث « الموت » ، وايغاله فيه ، حتى أصبح « فكرة ثابتة » لديه ، نتيجة موت عتبة ، في اكبر احتمال .

وأقسى تجربة يمر بها شاعر ان تموت الحبيبة التي يهبها روحه، فانه يأخذ عندئذ في التفكر بالموت بدلاً من التفكر بالحبيبة . ولنا في سيرة الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي ، أوضح مثال على ذلك في ايامنا هذه .

وتلك هي مأساة ابي العتاهية في أعوامه الأخيرة ...

شاعريته وميزاته الأدبية

انت لا تستطيع معرفة شخص الا بطول معاشرته ، ثم لا تستطيع ان تطمئن الى صحة آرائك فيه ، الا حين تحيط بجميع ما يتصل به ويصدر عنه من اقوال واعمال ، فاذا كان شاعراً كبيراً ، او سائساً ، او فيلسوفاً ، او مربياً ، او متفرداً بجانب من الحياة او موهبة من المواهب ، لا تستطيع ان تقدّم للناس عنه صورة صحيحة الا حين تكون على علم بالجانب الذي تفرّد به ، وفهم بالموهبة التي يتميز بها .

وقد رأينا عند درس حياة ابي العتاهية وشخصيته شبه إجماع لدى معاصريه من الشعراء والأدباء ، على انه يحتلّ ذروة عالية من الشاعرية ، ومن تقدير الذين يهتمون بالشعر وأهله . وما كان لرجل مثل ذلك « المعتّـه » ان يبلغ تلك الذروة ، وهو من علمت كيف عومل وكيف أصابه الأذى والهوان ، لو لم يكن ، في حقيقة الأمر ، ذا أصالة شعرية ، وميزات أدبية متفردة . فما هي هذه الميزات ، واين تكمن اصالته ؟

الأمر الذي صعب على الناس تبيّنه في نفسية ابي العتاهية ، وكان يشعر به الخلفـــاء الذين عاشروه طويلاً ، واحتكوا به احتكاكاً وثيقاً ، هو تلك الثورة العارمة التي تملأ جوانب نفسه، ولكنها لم تكن تجد في الظروف المحيطة بهـا والاحوال التي تعانيهـا ، ما يسمح لهـا بالظهور ، او يتيح لها ان تتمثل تمثلاً حقيقياً ، فكانت تتلبّس بلباس يناقض حقيقتهـا ، وتتراءى للنظر النافذ حتى في هوان صاحبها على نفسه ، وفي تزلّفه ، وفي تزهده وتنسكه .

ولن يصعب عليك ان تقبض على هذه الثورة « المتنكرة » في فلتات ، والتفاتات، ومداورات فكرية وعاطفية وعملية.

وخلاصة هاتيك الثورة أن ابا العتاهية لم يكن ينطوي على شيء من الاحترام للملوك ، وأنـّى له ان يبوح بواقع ما ينطوي عليه ، وأقلّ العقـــاب الذي ينتظره في مثل ذلك البوح ، هو القتل ؟! ولقد أحب جارية الخليفة ، وباح بحبه ، ولقي من ذلك بلاءً يهدُّ الجبال . فهل يبوح بعد بشيء ؟!

هنا ، أخذ يدور على نفسه في دوامة من التضليل والتنكر والتستر ، واصطناع المظاهر التي يتقي بها غضب الملوك ، وان ظل يزدريهم ، ويشعر بوحشة الوجود مع وجودهم :

ان الملوك بلاء حيثما حلـّوا فلا يكن لك في اكنافهم ظلُّ

مـاذا ترجّي بقومٍ ان همُ غضبـوا
جاروا عليك ، وإنْ أرضيتهم ملّـوا
وانْ نصحت لهم ظنوك تخدعهم
واستثقلوك كما يستثقـل الكَـلُّ
فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً ان الوقوف عـلى أبوابهم ذل

ثم انتقلت هذه الثورة المكبوتة ، مع التفكير ، وملاحظة الأحداث ، والتأمل في احوال النـــاس ، انتقلت من الملوك لتنصبّ على الذين يملّكونهم ، ويسلّطونهم ، ويمكّنونهم من الأرزاق والأعناق والأعراض ، ثم على الذين يحبّون الرئاسة ، ثم على الدنيـــا ، على الزمان ، وأخيراً هدأت في اليأس ، والاعتزال ، والانصراف عن الحيــاة الى التفكر في الموت ، وتهوين الأمور :

أصبح هذا الناس قالاً وقيل فالمستعـــان الله صبر جميل
مـــا أثقل الحق على من نرى لم يزل الحق كريهـــاً ثقيل
أيا بني الدنيـا ويا جيرة الموتى الى كم تغفلون السبيل ؟

هذه الثورة الخفيَّة المتوارية وراء ألف ستار ، المنبثة حتى في الحث على الزهد ، والابتعـاد عن الموبقات ، والنصح بالصبر والأناة ، هي الأصل في شاعرية أبي العتاهية ، وكل ما حولهـــا حواشٍ وذيول ، وفروع …

واقعية صارمة

وأعجب ما تلقاه في أشعار هذا الثائر اليائس ، الذي استسلم

في بدءٍ من ثورته ، أنه يواجه الحيـــاة بروح واقعية ، فلا تلمس لديه أدنى استرسالٍ مع وهم ، أو إغراقٍ في خيــال ، أو ضلال عن رؤية مــا يجري في النفس البشرية ، وفي مجتمعه ، وفي دنياه بقول مختصر :

إنّا لمستوطنون داراً نحن بهـا عابرو سبيل
دار أذى لم يزل عليلٌ يشكو أذاها الى عليل
كم شاهدٍ انهـا ستفني من منزلٍ مقفر محيل
كم مستظلٍّ بظلّ ملكٍ أُخرج من ظلّه الظليل

وواقعية أبي العتاهية هي التي يسّرت قول الشعر عليه ، ومنحته هاتيك السهولة في البيــان والوضوح في التعبير ، حتى لتحسب انــه يتحدث شعراً ، أو هو يستخدم اللغة العامية في شعره . وقد لمس معاصروه مــا يفيض عن تلك الواقعيــة من « طبعية » ، فوصفوه بأنه أطبع شعراء زمانه ، دون ينفذوا الى ما وراء تلك الصفة من حسٍّ بالواقع ، وقدرةٍ على تصوّره وتصويره ، فان هذه القدرة نفسها هي أيضاً احدى نتائج الحسّ المرهف بالواقع .

وأخذ عليه معاصروه ، قبالة اعجابهم بطبعيته ، انه مهلهل العبارة ، عديم الجزالة ، تنقصه فخامة البناء ، وكانوا يقولون : « لو ان ابا العتاهية طبع بجزالة اللفظ لكان أشعر النـــاس » . والحقيقة هي ان الواقعية في الفن ، كل واقعية وكل فن ، تصدف بصاحبهــا عن إعمــال الفكر في الشكل ، وتحول دون اهتمامه بالزخارف والمحسّنات والزينات الخارجية ، اذ ينصرف معهــا

ذهن الفنان الى أداء ما يحس ، ما يشهد ، ما يملأ سريرته من انطباعات عفوية ، فاذا استحوذت عليه الحقيقة التي يعرفها ، وحاول ان يبرزها على نحو ما استحوذت عليه، تخلّى عفواً عن كل زينة .

تأمل هذا البيت :

وأيّ امرىءٍ في غاية ، ليس نفسه
الى غاية اخرى سواها ، تَطَلّع ؟

انه تساؤل عن القناعة ، ولكنه يمكن ان يكون في الوقت نفسه حثاً عليها ، وقد يكون تبريراً للتطلع ، للطموح ، وقد يكون لوماً للخاملين ، وقد يكون تقريراً لحقيقة نفسية . وذلك هو شأن الواقعية في الشعر، يختلف مفهوم كل بيت تقريباً بحسب الزاوية التي نواجه منها معناه ، أو اللهجة التي نتصوّر الشاعر ينطق بها كلامه . ولكن الواضح ، هو اغفال الزينة البيانية والحلى الخيالية .

ثم انظر الى هذا البصر الحديد في رؤيا أبي العتاهية ، لما وراء الواقع :

إن المطامع ما علمت مَزَلّةٌ للطامعين ، وأين من لا يطمع ؟
ولربما انتفع الفتى بضرار من ينوي الضرار،وضرّه من ينفع
لا شيء أسرع من تقلّب من له أذنٌ تسمّعُهُ الذي لا يسمع

والبيت الأخير آية من آيات الدفاع عن الواقعية ، فكثيرون هم الذين يتمتعون بأذن تسمّعُهم أشياء لا يسمعونها ، ولذا يسرعون في التقلب ، بل هم أسرع الناس الى التقلب . وخلاصة

المراد ان يتثبت المرء ، ويرسخ ، فلا ينساق مع الأوهام ، وهذا ما يتضح أجلى فأجلى في الأبيات الآتية :

خذ من يقينك ما تجلو الظنون به
وإن بدا لك أمر مشكل ، فدع
قد يصبح المرء فيما ليس يدركه
مملّق البال بين اليأس والطمع
لم يعملِ الناس في التصحيح بينهم
فاضطر بعضُهُم بعضاً ، الى الخُدَعِ

لا أظن ان الفلاسفة الذين تشددوا في البناء على اليقين ، ودفع الشك (الظنون) ، أتوا بأفضل ما جاء به أبو العتاهية قبلهم في هذا الباب ، سواء في ذلك الإمام أبو حامد الغزالي ، أو ديكارت .

ولكن أبا العتاهية استخدم واقعيته حتى النهاية ، وراح يجلو الظنون بما يشاهد ، بما يسمع ، بما يرى ، وأخذ يعمل في « التصحيح » فأفضى به نظره الى رؤية أشياء لا سبيل الى الشك في صحتها ، وأولها الموت :

لعمري لقد نوديت لو كنتَ تسمع
ألم تر أن الموت ما ليس يدفع
ألم تر أن الناس في غفلاتهم
ألم تر أسباب الأمور تقطّع
ألم تر لذاتِ الجديد الى البلى
ألم تر أسباب الحِمام تشيّع

ألم تر أن الفقر يعقبـــه الغنى
ألم تر أنــ الضيق قد يتوسع
ألم تر أن المرء يشبع بطنُـــهُ
وناظره فيما يرى ، ليس يشبع
ألم تر أنــ المرء يحبس مـــاله
ووارثــه فيه غـــداً يتمتع

واذا كان الموت هو الحقيقة الكبرى التي يرسو عليها اليقين ، والتي يشاهد المرء آثارها بأم عينه ، فـــلا بد إذن من متابعة السلسلة المنطقية التي ترتبط بتلك الحقيقة ، والأخــذ بالحقائق الفرعية التي تنبثق عنها .

وهكذا ... يستل ابو العتاهية آراءه في الأخلاق ، ويمضي في الوعظ ، ويمضي الى مـــا لا نهاية ، وعُدّته في كل مواعظه ، منطق رائع في تماسكه ، وملاحظات دقيقــة ، وتجارب عاش في أجوائها وتمرس بهـــا تمرس المفكر الهادىء ، وأحداث لم يبق في الناس ، من لا يعرفها ، سوى القلة الضئيلة :

إياك أعني يا ابن آدم فاستمع ودع الركون الى الحياة فتنتفع
لو كان عمرك ألف حول كامل لم تذهب الأيام، حتى تنقطع..

الموضوعات الاخلاقية

انتهى إذن من الحقيقة الكبرى – الموت – الى جملة من الحقائق الأخلاقية التي تنطبق على كل زمان ومكان ، ومذ كانت الأخلاق لا تنفصل عن دراسة النفس البشرية ، فقــد سبق ابو

العتاهية بحكم واقعيته ، ومنطقه ، وتشديده على نفي الظنون ، واعتماد اليقين ، الى تقرير جملة من الحقائق النفسية أيضاً ، المتصلة بالجانب الأخلاقي :

وأولى هذه الحقائق ، ان لا يخادع المرء نفسه في مواجهة الواقع :

ألا أيها المرء المخادع نفسه

رويداً ... أتدري من أراك تخادع !؟

والثانية ان لا سبيل الى فصل الغاية عن الوسيلة :

ما يُنال الخير بالشر ولا يحصد الزارع إلا ما زرع

والثالثة ان الحياة تجمع النقائض ، من خير وشر ، وألم ولذة ، من حلو ومر :

هوّن الأمر تعش في راحةٍ قلما هونت ، إلا سيهون
ما يكون العيش حلواً كله إنما العيش سهول وحزون

وعن هذه الحقائق الأخلاقية الثلاث تتحدر سائر المعاني والصفات التي نادى بها جميع الأخلاقيين ومعظم المتصوفة بعد أبي العتاهية ، مثل : الصدق مع النفس ومع الآخرين ، والترفع عن الوسائل الوضيعة في طلب العيش ، والصبر ، والقناعة ، والاحتراز من الغفلة ، ومؤاساة الناس ، والابتعاد عن مواضع الشك ، والتحلي بالرفق ، ومصافاة الأصدقاء الكرام ، والتزود بالصالحات ...

هذه الموضوعات تتكرر على وجه التقريب، في كل قصيدة ، وتبرز في ثوب يخلو من كل تأثر مكاني أو زماني ، بمعنى أنها لا تعبّر عن حالة خاصة ، أو وضع آني ، او ظرف معين . والشاعر فيها لا يخاطب فئة ، ولا جماعة معينة ، وإنما هو يخاطب ابن آدم عامة ، والناس من غير تحديد ، ويتحدث الى « الإنسان » بصرف النظر عن بلده ، ولغته ، وقومه ، ومقامه :

ما زلت ويحك يا ابن آدم دائباً
في هدم عمرك منذ كنت جنينا

بل كثيراً ما يخاطب « ساكن الدنيا » :

يا ساكن الدنيا أتعمر مسكِناً لم يبق فيه مع المنية ساكن ؟!

ويُطلق القول بلغة التعميم او التقرير العلمي :

مؤاخاة الفتى البطر البطين تهيّج قرحة الداء الدفين
ويدخِل في اليقين عليك شكا ولا شيء أعز من اليقين

ولا يخلو من هذه النزعة العالمية ، حتى عندما يتحدث عن نفسه ، ويخاطب ربه ، فتجد حديثه صالحاً لكل من يؤمن إيمانه ، ويمر بحالته :

إلهي لا تعذبني فاني مُقرّ بالذي قد كان مني
يظن الناس بي خيراً واني لشر الناس ان لم تعف عني
أجَنّ بزهرة الدنيا جنوناً وأفني العمر فيها بالتمني

ولقد كان الأصمعي يقول : « شعر أبي العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى » ، يريد انّ فيه الجيد والرديء ، والفائق والعادي ، والعزيز والمبتذل ، بيد ان أبا العتاهية هو الوحيد في شعراء العربية الذي ساقته ظروفه العامة والخاصة الى وضع فريد ، أصيل ، تحول معه شعره الى « رسالة » وأداء رسالة، بالمعنى الانساني الصحيح.

وما من شاعر بين معاصريه ، كبشار ، وأبي نواس ، ومسلم ابن الوليد ، ومطيع بن أياس ، وحماد عجرد ، والخليع ، ومروان بن أبي حفصة، إلا وهو « يتحيز » في بيئة ، أو جماعة، او فئة من الناس ، او حزب ، ولا يصح ان يكون انسانياً ، عالمياً ، بينما تغلب هذه الصفة على أبي العتاهية ، ويضعها شعره موضع اليقين . وهذا ما حمل أهل بيزنطة على مطالبة الرشيد بايفاده اليهم ، كما مر بك .

انه بهذا المعنى « مجدد » و « إمام » و « رسول » . وما كان الحس الأخلاقي ليبعث في الدنيا شاعراً عربياً ، غير ابي العتاهية، على كثرة ما عني العرب بالشعر ، وأعطوا من شعراء .

ولم يكن مجدداً في الاتجاه ، والموضوعات التي تناولها وحسب ، وانما ساقته أصالته ايضاً الى التجديد في الشكل ، فقد سئل يوماً ، وهو المعروف بضآلة ثقافته ، وبانه ربيب نفسه وتجربته : « أتعرف العروض ؟ » فقال : « انا اكبر من العروض » . والمسعودي يقول عنه : « .. وله اشعار خرج فيها عن العروض ، مثل قوله :

همّ القاضي بيتٌ يطرب   قال القاضي لمّا عوتب
ما في الدنيـــا إلا مذنب   هذا عذر القاضي، واقلب

وزنه فعلن اربع مرات . وقد قال قوم : ان العرب لم تقل على وزن هذا شعراً ، ولا ذكره الخليل ، ولا غـــيره من العروضيين . »

بعد ابي العتاهية

لا جدال ان الذين تأثروا بأشعار ابي العتاهية – ولا سيما من اهل التصوّف ورجال الفكر والدين – اكثر من ان يحصيهم عدّ ، فهو بلا شك ، زعيم مدرسة شعرية ، تقف على النقيض من المدرسة التي تزعمها ابو نواس في الجانب الشعوبي ، فهذا ماجنٌ هازل محصور في بيئــة ، مقتصر على أحاسيس زمنيــة ، وذاك جادّ ، منفتح على الحياة وما وراءها ، متخط بيئته وزمانه .

واذا انت اعدت النظر في بعض ما قاله المتنبي وابن الرومي وابن الفارض ، وقارنته باشعار ابي العتاهية ، أدركت مدى ما تأثر به الشعراء الذين جاءوا من بعده .

ولكن اثره الأعظم كان ابرز ما ظهر في ذلك التيار الصوفي الذي جرف المفكرين والأخلاقيين ، وكان منهم اخوان الصفاء ، والغزالي في المشرق ، وابن حزم ، وابن عربي في الأندلس .

وذلك واضح من عنايتهم بادبه ، ورعايتهم لآثاره ، كما هو واضح في اتجاههم الذي تأثر باتجاهه ...

مختارات من أدبه

رسالة نثرية – شعرية

لم يؤثر عن ابي العتاهية انه مارس الكتـابة النثرية ، وهو الذي كان يقول : «لو أردت ان اجعل كلامي كله شعراً لفعلت» ولكن ما رشح الينـا من مقطـّعاته في النقد ، وبعض كلماته المنثورة ، يشير الى دقة في البيان ، وروعة في الأداء .

وفيما يلي رسالة كتبها الى الفضل بن معن بن زائدة ، وذكرها ابن عبد ربه في « العقد الفريد » :

« أما بعد ، فاني توسلت اليك في طلب نائلك بأسباب الأمل وذرائع الحمد ، فراراً من الفقر ، ورجاءً للغنى ، فازددت بهما بعداً ممـا فيه تقرّبت ، وقرباً فيما فيه تبعّدت ، وقد قسمت اللائمة [1] بيني وبينك ، لأني أخطأت في سؤالك ، وأخطأت في

١ – اللائمة : اللوم .

منعي : أُمِرتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم ونُهيتَ عن منع أهل الرغبة فمنعتهم ، وفي ذلك أقول :

فررتُ من الفقر الذي هـو مدركي
الى بخـل محظور النـوال ، مَنُـوع
فأعقبني الحرمان غبَّ مطامعي
كذلك مـن يلقـاه غـيرَ قنوع
وغير بديـعٍ منع ذي البخل مـاله
كما بذل أهل الفضل غـير بديـع[1]
اذا أنت كشّفتَ الرجـال وجدتهم
لأعراضهم من حـافظٍ ومذيـعٍ »

(العقد الفريد ، ج ٢ : ١٩٦)

آه من الحب !

آه من غمّي وكربي آه من شدة حبي
ما أشد الحب ! يا سبحـانك اللهم ربي !
لم أنل منـه نوالاً غير ان كدّر شربي
أنتِ ممن خلق الرحمان من ذي الخلق ، حسبي
ولقـــد قلت وجمر الحب قد اقرح قلبي
يا بلائي من غزال قد سبا قلبي ولبي !

---

١ – بديـع بمعنى « مبتدع » أي غريب مستهجن .

زوريني !

بالله يـــا حلوة العينين زوريني
قبـــل الممات وإلا فاستزيريني
هذان أمران فاختاري أحبهما
اليكِ أو لا فداعي الموت يدعوني
إن شئتِ متُّ فأنت الدهرَ مالكةٌ
روحي، وإن شئت أن أحيا فتحييني
يا عُتبَ ما أنتِ إلا بدعة خلقت
من غير طين، وخلق الناس من طين
اني لأعجب مــن حبٍّ يقربني
ممن يبـاعدني منـــه ويُقصيني
أما الكثير فلا أرجوه منك ولو
أطمعتني في قليل ، كان يكفيني
يا أهل ودّيَ إني قد لطفت بكم !
في الحب جهدي ولكن لا تبالوني

خوف ورجاء

يا عُتْبَ هجرك مورث الأدواء — والهجــر ليس لودنا بجزاء
يا صاحبيّ لقد لقيت من الهوى — جهداً ، وكلّ مذلةٍ وعنــاء
علق الفؤاد بحبها من شقوتي — والحب داعية لكل بــلاء
اني لأرجوها وأحذرها فقد — أصبحت بين مخافة ورجــاء

بخلت عليّ بودها وصفائها ومنحتها ودي ومحض صفائي
فتخالف الاهواء فيما بيننا والموت عند تخالف الاهواء

درّة !

كأنها من حسنها درة أخرجها اليمّ الى الساحل
كأن في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلن من بابل
لم يبقِ مني حبها ما خلا حشاشة في بدن ناحل
يا من رأى قبلي قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل

الهوى أعمى

من لم يذق لصبابة طعما فلقد أحطت بطعمها علما
إني منحت مودّتي سكنا فرأيته قد عدّها جرما
ياعتب ما انا من صنيعك بي أعمى، ولكنّ الهوى اعمى
والله ما أبقيت من جسدي لحماً ولا أبقيت لي عظما
ان الذي لم يدرِ ما كلفي ليرى على وجهي به وسما

بلاء !

أخلاّي بي شجوٌ وليس بكم شجو
وكل امرىءٍ عن شجو صاحبه خلو
وما من محبٍّ نال ممن يحبّه
هوى صادقاً الا سيدخله زهو

بليت وكان المزح بدء بليّتي
فأحببت حقاً ، والبلاء له بدو
وعُلـّقت من يزهو عليَّ تجبُراً
وانيَ في كل الخصال له كفو
رأيت الهوى جمر الغضى غير انه
على كل حالٍ عند صاحبه حلو

قدرٌ أليم

خليليّ مالي لا تزال مضرّتي
تكون على الأقدار حتماً من الحتم
يصاب فؤادي حين أرمي ورميتي
تعود الى نحري ، ويسلم من أرمي
صبرت ولا والله ما بي جلادة
على الصبر ، لكني صبرت على رغمي
ألا في سبيل الله جسمي وقوتي
ألا مسعد حتى أنوح على جسمي
تُعَدُ عظامي واحداً بعد واحد
بمنحى من العذال ، عظماً على عظم
كفاكِ بحق الله ما قد ظلمتني
فهذا مقام المستجير من الظلم

دلّ وهجران

الله بيني وبــين مولاتي أبدت لي الصد والملالات!
لا تغفر الذنب إن أسأت ولا تقبل عذري ولا مؤاتاتي
منحتها مهجتي وخالصتي فكان هجرانهـا مكافاتي
أقلقني حبهـــا وصيّرني احدوثة في جميع جاراتي

حتى متى ؟ وأين أفر ؟

يا عتب سيدتي ! أما لك دين؟ حتى متى قلبي لديك رهين ؟
وأنا الذلول لكل ما حملتني وأنا الشقي البائس المسكين
وأنا الغداة لكل باكٍ مسعد ولكل صبّ صاحب وخدين
لا بأس إن لذاك عندي راحة والصب اذ يلقى الحزين حزين
يا عتب أين أفر منك؟ أميرتي! وعليّ حصن من هواك حصين!

دمية

كأنّ عُتّابة من حسنها دميـة قس فتنت قِسّهـا
يا رب لو انسيتنيها بمـا في جنة الفردوس لم أنسها

زمن الشباب

لهفي على الزمن القصير بين الخورنق والسدير
اذ نحن في غرف الجنـان ، نعوم في بحر السرور
في فتية ملكوا عنان الدهر أمثـال الصقور

مـــا منهم إلا الجسور على الهوى غير الحصور
يتعاورون مدامة صهبـــاء من حلب العصير
عذراء ربّاهـا شعـــاع الشمس في حرّ الهجير
لم تدن من نارٍ ولم يعلق بهـا وضر القدور
ومقرطق يمشي أمـــام القـوم كالرشأ الغرير
بزجـاجة تستخرج السر الدفين من الضمـــير
زهراء مثـل الكوكب الدرّيّ في كف المدير
تدع الكريم وليس يدري مـا قبيلٌ من دبير
ومخصّـرات زرنـنـــا بعد الهدوّ من الخدور
ريّا روادفهن يلبسن الخواتم فـي الخصـــور
غر الوجوه ، محجبات ، قاصرات الطرف ، حور
متنعمات في النعـــيم ، مضمّخات بالعبـير
يرفلن في حلل المحـاسن والمجـاسد والحـرير
ما ان يُرين الشمس الا القرط من خلل الستور

الناس لمن ؟

ما الناس إلا للكثيرِ المال أو لِمُسلّطٍ ما دام في سلطانه
فاذا الزمان رماهما ببلية كان الثقات هناك من أعوانه

الموت امامك !

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
لدواعي الخـــير والشر دُنُوٌّ ونزوح

هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح ؟
كيف اصلاح قلوبٍ انما هنّ قروح ؟
أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح !
فاذا المستور منّا بين ثوبيه نضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيلٍ صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الارض على قومٍ فتوح
سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والموت يغدو ويروح
لبني الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح
رحن في الوشي وأصبحن عليهن المسوح
كل نطّاح من الدهر له يوم نطوح !
نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح
لتموتُنَّ وان عمّرتَ ما عمّر نوح

منة الفاجر

اني لأكره ان يكون لفاجر عندي يدُ
فتجر مَحْمدتي اليه وليس ممّن يُحمَدُ

رجولة وانسانية

ألا لا أرى للمرء ان يأمن الدهرا فإن له في طول مدته مكرا

فكم من ملوك أمّلوا ان يخلّدوا
رأيت صروف الدهر تجزرهم جزرا
بليت بدار ما تقضّى همومها فلست أرى إلا التوكل والصبرا
اذا ما انقضى يوم بامر فقلت قد أمنت أذاه، احدثت ليلة أمرا
أحبّ الفتى ينفي الفواحش سمعه
كأنّ به عن كل فاحشةٍ وقرا
سليم دواعي النفس لا باسطاً يداً ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجرا
اذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن انت مرتاداً لزلته عذرا
أرى اليأس من ان تسأل الناس راحة
تميت بها عسراً وتحيي بها يسرا
وليست يدٌ أوليتها بغنيمة
اذا كنت تبغي ان تعدّ لها شكرا
غنى المرء ما يكفيه من سد خلة
فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

وصية !

رغيف خبز يابس تأكله في زاويه
وكوز ماءٍ باردٍ تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة نفسك فيها خاليه
أو مسجد بمعزل عن الورى في ناحيه
تدرس فيه دفتراً مستنداً بساريه
معتبراً بمن مضى من القرون الخاليه

خير من الساعات في　　　في‌ء القصور العاليه
تعقبهـــا عقوبـة　　　تصلى بنار حاميه
فهـذه وصيـــتي　　　مخـبرة بحـاليـه
طوبى لمن يسمعها　　　تلك لعمري كافيه

أمام الموت

إلهي لا تعذبـني فاني　　　مقرٌ بالذي قد كان مني
فما لي حيلةٌ إلا رجائي　　　لعفوك -إن عفوت- وحسن ظني
وكم من زلـّة لي في الخطايا　　　وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
اذا فكرت في ندمي عليها　　　عضضت أناملي وقرعت سني
أُجنُّ بزهرة الدنيا جنوناً　　　وأقطع طول عمري بالتمني
ولو اني صدقت الزهد عنها　　　قلبتُ لأهلها ظهر المجن
يظن الناس بي خيراً واني　　　لشرّ الخلق، إن لم تعف عني

برد اليأس

قطـّعت منك حبـائل الآمـال
وحططت عن ظهر المطيّ حبالي
ووجدت برد اليأس بين جوانحي
فأرحت من حلٍّ ومن ترحال
يا أيها البطِرُ الذي هو من غدٍ
في قـبره متمزق الأوصـــال

حذف المنى عنه المشمّر في الهدى
وأرى منـــاك طويلة الأذيال
حيل ابن آدم في الامور كثيرة
والموت يقطع حيلة المحتـــال
قست السؤال فكان أعظم قيمة
من كل عـارفةٍ جرت بسؤال
فاذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً
فابذله للمتكـــرم المفضـــال
واذا خشيت تعذراً في بلدةٍ
فاشدد يديك بعاجل الترحـال
واصبر على غِـيَر الزمان فإنما
فرج الشدائد مثـل حل عقـال

حكم وأمثال

هذه الحكم والأمثال مأخوذة من أرجوزة تعرف بـ « ذات الأمثال » ، يذكر مؤرخو الأدب العربي ان فيهـا أربعة آلاف مثل ، ولم يبق منها سوى ما ذكره أبو الفرج في « الأغاني » ، وما تناقله بعضهم زيادة عليه :

حسبك ممـــا تبتغيه القوت ما أكـــثر القوت لمن يموت
الله حسبي في جميـع أمري به غنائي واليـــه فقري
الفقر فـــيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجـــا وخافا
ان كان لا يغنيك ما يكفيكا فكل ما في الأرض لا يغنيكا

ان القليل بالقليـــل يكثر ان الصفاء بالقذى ليكدر
هي المقادير فلمني أو فـــذر
ان كنت أخطأتُ، فما أخطا القدر
ما انتفع المرء بمثل عقـــله وخير ذخر المرء حسن فعله
ان الفساد ضـــده الصلاح ورب جـــدّ جره المزاح
يغنيك عن كل قبيح تركه يرتهن الرأي الأصيل شكه
لكل قلب أمـل يقلّبه يصدقه طوراً، وطوراً يكذبه
يا رب من أسخطنا بجهـــده قــد سرّنا الله بغـير حمده
من لم يصل فارض اذا جفا كا لا تقطعن للهوى أخا كا
العـنز لا يسمن الا بالعلف لا يسمن العنز بقول ذي لطف
لن يصلح الناس، وأنت فاسد هيهات ما أبعد ما تكابد!
لكل ما يؤذي، وان قلّ ألم ما أطول الليل على من لم ينم
ان اختفى ما في الزمان الآتي فقس على الماضي من الأوقات
ما تطلع الشمس ولا تغيب الا لأمر شأنـه عجيب
لكل شيء معدن وجوهر وأوسط وأصغر وأكبر
وكل شي لاحق بجوهره أصغره متصل باكبره
من لـك بالمحض وكل ممـتزج وساوس في الصدر منك تختلج
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخـير والشر بها أزواج لذا نتـاج، ولذا نتـاج
من لك بالمحض وليس محض يخبث بعض، ويطيب بعض
لكـل انسان طبيعتـان خـير وشر وهـما ضدان
والخير والشر اذا ما عُدّا بينهما بون بعيـد جـدا

انك لو تستنشق الشحيحا وجدته أنتنَ شيء ريحا
عجبت حتى غمني السكوت صرت كأني حائر مبهوت
كذا قضى الله فكيف أصنع ؟
والصمت ان ضاق الكلام ، أوسع
الترك للدنيا النجاة منها لم تر أنهى لك منها عنها
من لاح في عارضه القتير فقد أتاه بالبلى النذير [1]
من جعل النمّام عيناً هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا
ما كنت لو أكرمت استعصي لا يهرب الكلب من القرص
من لم يكن في بيته طعام فما له في بيته مقام
المكر والعتب أداة الغادر والكذب المحض سلاح الفاجر
سامح اذا سمت ولا تخش الغبن لم يغلُ شيء هو موجود الثمن
من عاش لم يخلُ من المصيبه وقلما ينفكُّ من عجيبه
يا طالب الدنيا بدنيا الهمه أين طلبت الله كان ثمه
يوسع الضيق الرضا بالضيق وانما الرشد من التوفيق
أستودع الله أموري كلها ان لم يكن ربي لها فمن لها ؟
ما أبعد الشيء اذا الشيء فقد
ما أقرب الشيء اذا الشيء وجد !
يعيش حي بتراث ميت يعمرُ بيت بخراب بيت
صلح قرين السوء للقرين كمثل صلح اللحم والسكين

---

١ - القتير : الشيب .

لم يصف للمرء صديق يمذقه
ليس صديق المرء من لا يصدقه [١]
معروف من منّ به خداجُ ما طاب عذب شابه أجاج[٢]
ما عيش من آفته بقاؤه نغّص عيشاً طيباً فناؤه
إنّا لنفنى نفساً وطرفاً لن يترك الموت لإلف إلفا
وللكلام باطن وظاهر في ساعة العدل يموت الجائر
ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للعقل أي مفسده
ان الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب
إصحب ذوي الفضل وأهل الدين
فالمرء منسوب الى القرين
اياك والغيبة والنميمه فانها منزلة ذميمه
لا تذهبنّ في الأمور فُرُطا لا تسألن ان سألت شططا[٣]
وكن من الناس جميعاً وسطا[٤]

لمَ الغرور ؟!

لأمرٍ ما خُلقت فما الغرور لأمر ما تحث بك الشهور

---

١ — مذق اللبن او الشراب : خلطه بالماء . ومذق الود : لم يخاصه . ومذقه : سقاه مذقة أي الشراب المخلوط المذوق .
٢ — الخداج : النقصان . الأجاج : كل ما يحرق الفم من حار ومر وملح
٣ — الفرط : الأمر المجاوز فيه الحد .
٤ — الكثير من هذه الأبيات روايات عديدة تختلف عما وردت هنا ، وقد اخترنا الأرجح والأفضل .

ألست ترى الخطوب لها رواح ... عليك بصرفها ولها بكور
أتدري ما ينوبك في الليالي ... ومركبك الجموح هو العثور
كأنك لا ترى في كل وجه ... رحى الحِدْثان ، دائرة تدور
ألا تأتي القبور صباح يوم ... فتسمع ما تخبِّرك القبور
فإن سكونها فرسٌ تناجي ... كأن بطون غابتها ظهور
فيا لك رقدة في غب كأس ... لشاربها بِلىً ، ولها نشور
لعمرك ما ينال الفضل إلا ... تقيُّ القلب ، محتسب ، صبور
أخيَّ أما ترى دنياك داراً ... تموج بأهلها ولهــا بحور
فلا تنسَ الوقار اذا استخف الحجى حدث يطيش له الوقور
ورب محرِّك لك في سكون ... كأن لسانه السبُعُ العقور
يبغّي الناس بينهم دبيب ... تضايق عن وساوسه الصدور
أعيذك ان تسر بعيش دار ... قليلاً ما يدوم لهــا سرور
بدار ما تزال لساكنيها ... تُهتِّك عن فضائحها الستور
ألا إن اليقين عليه نور ... وان الشك ليس عليه نور
وان الله لا يبقى سواه ... وان تكُ مذنباً فهو الغفور
وكم عاينت من ملك عزيز ... تخلّى الاهل عنه وهم حضور
وكم عاينت مستلباً عزيزاً ... تكشّف عن حلائله الخدور
ودُميَت الخدود عليه لطماً ... وُعصّبت المعاصم والنحور
ألم تر إنما الدنيا حطــام ... وأن جميع ما فيها غرور

العلم لا يخفى

وانما العلم من قياس ... ومن عيار ، ومن سماع
والكاتم الامر ليس يخفى ... كالموقد النار من يفاع(١)

١ – اليفاع : ما ارتفع من الارض كالتلة والربوة ونحوهما .

حتى متى يستفزُّني الطمع ... أليس لي بالكفاف متسعُ
ما افضل الصبر والقناعة للناس جميعاً لو انهم قنعوا
وأخدَعَ الليل والنهار لأقوام اراهم في الغي قد رتعوا
اما المنايا فغير غافلة ... لكل حي من كأسها جُرَع
أي لبيب تصفو الحياة له ... والموت وِرد له ومنتجع
والخلق يمضي يوماً ببعضهم ... بعضاً فهم تابع ومتَّبَع
يا نفس مالي أراك آمنة ... حيث يكون الروعات والفزع
ما عُدَّ للناس في تصرف حالاتهم من حوادث تقع
لقد حلبت الزمان أشطره ... فكان فيهن الصاب والسلَع(١)
مالي بما قد أتى به فرح ... ولا على ما ولّى به جزع
لله در الدنى لقد لعبت ... قبلي بقوم فما ترى صنعوا
بادوا ووفّتهم الأهلّة ما ... كان لهم ، والايام والجُمَع
أثروا فلم يدخلوا قبورهم ... شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم ... أعظم نفعاً من الذي ودعوا
غداً ينادى من القبور الى ... هول حساب عليه نجتمع
غداً توفّى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
تبارك الله كيف قد لعبت ... بالناس هذه الأهواء والبِدع
شتت حب الدنى جماعتهم ... فيها ، فقد اصبحوا وهم شيَع

---

١ — السلع : جمع سلعة وهي العلق : نبات مر كالعلقيم .

إياك والغفلة !

الرفق يبلغ ما لا يبلغ الخرَقُ
وقلّ في الناس من يصفو له خُلق
لم يفلق المرء عن رشد فيتركه
الا دعـــاه الى ما يكره الفلـَق
الباطل الدهر يلفى لا ضياء له
والحق أبلج فيـه النور يأتلق
متى يفيق حريص دائب أبداً
والحرص داء له تحت الحشا قلق ؟
يستغنم الناس من قوم فوائدهم
وانما هي في أعناقهـــم ربَق
فيجهد الناس في الدنيا منافسة
وليس للناس شيء غير ما رزقوا
يا من بنى القصر في الدنيا وشيده
أسست قصرك حيث السيل والغرق
لا تغفلن فإن الدار فانيـــةٌ
وشربها غصص او صفوها رنَق
والموت حوض كريه أنت وارده
فانظر لنفسك قبل الموت يا مذق
اسم العزيز ذليل عنـــد ميتته
واسم الجديد بُعيد الجدة، الخلـَق

يبلى الشباب ويفني الشيب نضرته
كما تساقط عن عيدانها الورق
مالي أراك وما تنفكُّ من طمع
يمتدُّ منك اليه الطرف والعنق
تذم دنيـــاك ذماً لا تبوح به
الا وانت لهـا في ذاك معتنق
فلو عقلت لأعددت الجهاز لهـا
بعد الرحيل ، بها ما دام لي رمق
اذا نظرت من الدنيا الى صور
تخيلت لك يوماً فوقهـا الخرق
ما نحن الا كركبٍ ضمـــه سفرٌ
يوماً الى ظلّ فيىءٍ ثمّت افترقوا
ولا يقـيم على الاسلاف غابرهم
كأنهم بهم من بعـــدهم لحقوا
ما هب او دب يفنى لا بقاء له
والبر والبحر والاقطار والأفق
نستوطن الارض داراً للغرور بها
وكلنا راحل عنهـــا ومنطلق
لقد رأيت وما عيني براقـدة
قتلى الحوادث بين الخلق تخترق
كم من عزيز أذلّ الموت مصرعه
كانت على رأسه الرايات تختفق

كل امرىءٍ وله رزق سيبلغـه
والله يرزق لا كيس ولا حمق
اذا نظرت الى دنياك مقبـلة
فـلا يغرّنك تعظيم ولا ملق
أخيّ إنّا لنحن الفائزون غدا
ان سلّم الله من دار لها عُلـَق[1]
فالحمد لله حمداً لا انقطاع له
ما إن يعظم الا من له ورق
والحمد لله حمداً دائمـاً ابداً
فاز الذين الى ما عنده سبقوا
ما أغفل الناس عن يوم انبعاثهم
ويوم يلجمهم في الموقف العرَق!

---

١ – : جمع علقة ، وهي الحب والمودة .

فهرس الكتاب

الموضوعات الاخلاقية – شاعر عالمي مجدد – بعد ابي العتاهية .

مصادر الدراسة

الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

مروج الذهب لابي الحسن المسعودي

تاريخ بغداد لابن الخطيب

تاريخ الخلفاء للسيوطي

معجم البلدان لياقوت الحموي

عصر المأمون للدكتور أحمد فريد الرفاعي

الأنوار الزاهية في ديوان ابي العتاهية لأحد الآباء اليسوعيين (١٨٨٦)

ابو العتاهية لفؤاد افرام البستاني (سلسلة الروائع ، طبعة ١٩٥٠)

هرون الرشيد للدكتور عبد الجبار جومرد

الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف طبعة ١٩٦٠

تاريخ الاسلام السياسي ... للدكتور حسن ابراهيم حسن

تاريخ الامم الاسلامية للشيخ محمد الخضري

الروم وصلاتهم بالعرب للدكتور اسد رستم

أعيان الشيعة للإمام محسن الامين

الأدب العربي وتاريخه محمود مصطفى (طبعة ١٩٣٧)

العقد الفريد لابن عبد ربه

٦٢ – ٤ – ٤٧١

٥٢

سلسلة
أعلام الفكر العربي

سلسلة جديدة تستقصي أعلام الفكر والأدب في تاريخ الامة العربية . وتعرف بآثارهم ، وتدرس شخصياتهم دراسة تستهدف تقديم زبدة صالحة مما يقتضي ان يثقف به النشء العربي في زماننا ، من معرفة بالعلماء والشعراء والمفكرين والكتاب الذين اسهموا في خلق الحضارة بما قدموا من آثار لاتزال حتى اليوم ، موضع بحث الباحثين ودرس الدارسين

بعض هؤلاء الاعلام سيختار من بين الذين تطلب المناهج الدراسية درسهم وتحليل نماذج مختارة من نتاجهم ، وبعضهم الآخر سيختار من بين الاعلام المغمورين الذين اغفلتهم المناهج وهم مع ذلك يعدون في موكب العقول العربية الكبيرة .

وقد عهدت دار الشرق الجديد في بيروت الى أساتذة ذوي خبرة واختصاص في تأليف هذه السلسلة فعسى أن تبلغ بها القصد . وتفي بما يرومه منها القارىء في لبنان وسائر البلاد العربية .

منشورات دار الشرق الجديد

الثمن ١٥٠ ق
٢٠٠ ق.س